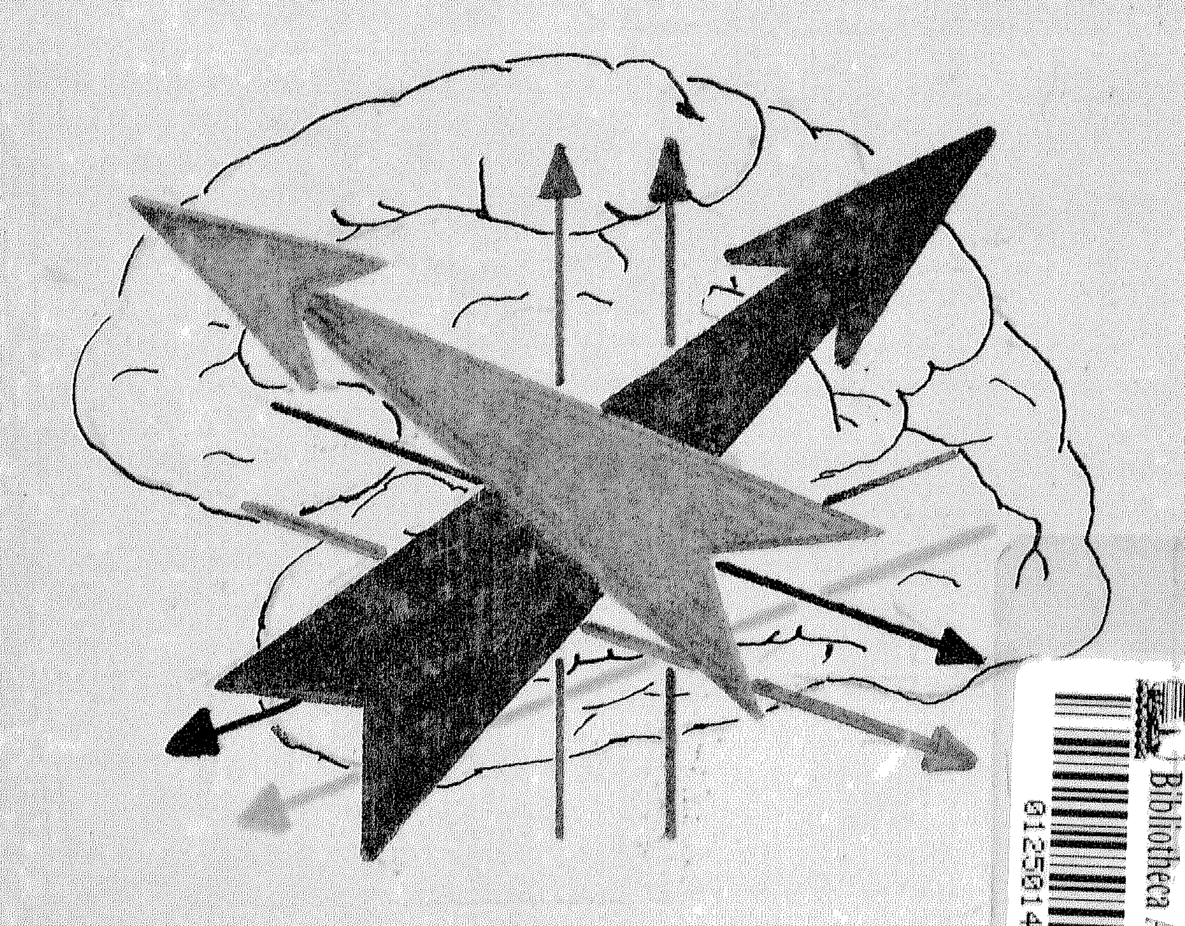
تأليف :

الدكتور حسن حنفي

اليمين واليسار في الفكر الديني



منشورات دار علاء الدين للنشر
دمشق

دار الثقافة الجديدة
القاهرة

اليمين واليسار
في الفكر الديني

تأليف :
الدكتور حسن حنفي

اليمين واليسار في الفكر الديني

منشورات دار علاء الدين



دمشق / ١٩٩٦ ـ ١٠٠٠ نسخة

التنضيد الضوئي : دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة
الإخراج الفني : ناصر شهاب الدين

يطلب الكتاب على العنوان التالي :

دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة
دمشق ص.ب : ٣٠٥٩٨
هاتف : ٢٣١٧١٥٨ ـ ٥٦١٧٠٧١
تلكس : ٤١٢٥٤٥ ـ فاكس : ٢٣١٧١٥٩

الفصل الأول

اليمين واليسار في الفكر الديني

ليس اليمين واليسار مقولتين في السياسة وحدها بل هما موقفان في المعرفة الانسانية والعلوم الاجتماعية بوجه عام ، وفي المواقف العملية والحياة اليومية بوجه خاص . ومهمتنا هنا بيان اليمين واليسار في الفكر الديني في تراثنا القديم وفي وجداننا المعاصر ، كما ورثناه في علم أصول الدين أو في علم التوحيد أو في علم الكلام أيَّ التسميات تشاء .

ولن نعتمد في هذه الدراسة على التحليلات الاحصائية ، فهذا مجال الدراسات الاجتماعية المتخصصة والرسائل الجامعية ، ولكننا سنعتمد على تحليل التجارب الحية ، ووصف الخبرات الشعورية المشتركة التي يشعر الجميع بها ، والتي تحتاج فقط إلى نوع من الاستبطان والاستبصار .

ونحن لن ندخل هنا في معركة البناء الفوقي والبناء التحتي ، أيهما علة وأيهما معلولٌ ، فهذه معركة بالية آكاديمية صرفة ، ولكننا سنحاول وصف الظواهر الفكرية كما هي التي تحتوي على علاقة جدلية ، فبقدر ما تكون الأفكار تعبيراً عن واقع يكون الواقع أيضاً موجّهاً بالأفكار .

ولكن التجربة الحية هي مادة التحليل ، إذ لا يوجد البناء الفوقي والبناء التحتي وحدهما في عــلاقة آلية صاعدة أو هابطة ، بل هناك البناء الشعوري الذي تقوم فيه هذه العلاقة الجدلية ، وحيث تلتقي الحركتان الصاعدة والهابطة بين البناءين الفوقي والتحتي في بؤرة الشعور حيث يتحدد بناء الظاهرة الانسانية . ولما كانت الأبنية الشعورية باصطلاح تقليدي لَبِنةُ فوقية فنحن أقرب إلى النظرة المثالية التي تفسر الظواهر الانسانية بالأبنية الفوقية ، وفي حالتنا هذه هي الفكر الديني ، دون الوقوع في علقة علية حتمية آلية بل عن طريق وصف التجارب الحية التي تمحي فيها التفرقة التقليدية بين العلة والمعلول ، وبين السبب والمسبب ، والتي تمحي فيها أيضاً التفرقة الشائعة بين الذات والموضوع . فالتحليل الوصفي هو ما تقوم به وليس التحليل العلي ، وكلاهما علم على حد سواء .

ولن نشير في وصفنا هذا إلى واقع مختلف عن واقعنا مثل الواقع الأوربي الذي نستقي منه عادة مادة ـ التحليلات بل أبدأ من واقعنا المباشر ، ومن تراثنا الحي ، ومن تجاربنا الشعورية المشتركة ، ومن نظمنا الاجتماعية القائمة .

وكلها محاولات قد تخطىء وتصيب ، بل قد تخطىء أكثر مما تصيب ، ولكننا نعرضها قضية للمناقشة حتى نفسح المجال لمفكرينا ومثقفينا للتساؤلات حول ارتباط الفكر الديني بالواقع الاجتماعي والاثر المتبادل بينهما حتى لا نظن أن الفكر الديني شيء مقدس بل هو نتاج انساني مثل الايديولوجيات التي تنبع من واقع اجتماعي ثم تعود لتؤثر فيه من جديد .

واليمين واليسار ليسا موقفين فكريين متمايزين بل هما أيضاً اتجاهان في التفسير ، فاليسار في الفكر قد يستغله اليمين لصالحه ، واليمين في الفكر قد يعيد تفسيره اليسار لصالحه أيضاً . فاليمين واليسار موقفان فكريان متمايزان من الأساس ، وأيضاً منهجان في التفسير .

وفي نهاية الأمر ، إن اليمين واليسار في الفكر الديني أساسا هما وضعان اجتماعيان يدلان على وجود طبقتين اجتماعيتين ، تحاول كل طبقة أن تدافع عن حقوقها بالأبنية

النظرية المتاحة في المجتمعات التقليدية وهي العقائد الدينية . فهي قضية عملية وليست قضية نظرية ، وبناء اجتماعي أكثر منها حقيقة فكرية . تحاول إحدى الطبقتين ، وهي الأقلية المسيطرة التي تملك وسائل الانتاج والمسيطرة على الحكم ، استغلال الطبقة الأخرى وهي الأغلبية ، لصالحها ، عن طريق الفكر الديني أي تفسيرها للدين لصالحها ، كما تحاول الطبقة الأخرى ، وهي الأغلبية المستغلة ، إعادة تفسير الدين لصالحها للقضاء على الأقلية المسيطرة بنفس السلاح . فالدين سلاح ذو حدين طبقا لاستعماله وهذا هو معنى العبارة المشهورة " افيون الشعب وصرخة المضطهدين " .

يدور علم أصول الدين الذي يحتوي على نموذج للفكر الديني حول مقدمتين وموضوعات ثانية يضاف إليها موضوع أو موضوعان كخاتمة ، ومن ثم تكون الموضوعات اثني عشر يتجاذبها اليمين واليسار على النحو الآتي :

١ ـ تبدأ المقدمة الأولى بعرض نظرية العلم أو كما يقال نظرية المعرفة إجابة عن سؤال: ماذا أعرف ؟ ويتضح موقفان : الأول يجعل الإيمان وسيلة للمعرفة ، والإيمان فعل أوّلي لا يسبقه فعل آخر ، يقبل ولا يرفض ، يُسلِّمُ به ولا يعترض ، يأخذ ولا يعطي . ثم يأتي دور النظر في تبرير الإيمان وفهمه دون نقده أو تمحيصه .

وهذا هو موقف اليمين ، فالتسليم يؤدي إلى الطاعة والرضا بما يعطي للشعب من حقائق عليه قبولها . فالفرد الذي يبدأ بالايمان كنظرية للمعرفة يكون أقرب إلى الطاعة للأمراء ، وإلى الانقياد للحكام . والشعب الذي يبدأ بالتسليم بالحقائق دون مناقشتها يكون أقرب إلى الاستكانة . ومن ثم ، تعمل النظم اليمينيّة على نشر الايمان بهذا الهدف لأنه يؤدي لها ما تبغي من الابقاء على الوضع القائم ، والتسليم به ، والاستكانة تحته ، والخضوع له . ولذلك لا تعتني هذه النظم بمحو الأمية أو بنشر التعليم بل يكون همها بناء المساجد ، والاكثار من الموالد ، وتدعيم الطرق الصوفية ، والاكثار من الدعوات والابتهالات ، وترديد التواشيح ، وانتشار المدائح ، وتعميم البرامج الدينية في أجهزة الاعلام لا عن ايمان بالدين ولكن عن نفاق وتغطية وتعمية وتستر على النظم الاجتماعية القائمة .

ولا يمكن للعنف والقهر والقتال أن يصنع الإيمان ، الذي هو تصديق بالقلب ويقين يستكن في النفس ويطمئن به الضمير ! ..

لقد جعل الاسلام ضبط النفس " جهادا " .. بل جعله الجهاد الأكبر ! .. وكذلك الحال مع " الحج " وبر الوالدين ، وكل الأعمال " السلمية " الداخلة في باب الطاعات .. ولكنه قصر " القتال " على الذين يقاتلوننا " في الدين ، بفتنتنا عن عقيدتنا .. نقاتلهم حتى ينتهوا عن عدوانهم ، فتعود لنا حرية العقيدة ، وينتفي الإكراه المفروض علينا ، ويصبح الدين كله لله (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين)[١] .



ويزيد من أهمية هذه القضية .. قضية : طبيعة القتال والحرب في الاسلام .. أن الذين يقولون بمشروعية " الحرب الدينية " يجعلونها هي الحرب الوحيدة المشروعة ، فينكرون الحروب الوطنية أو الاجتماعية .. الخ .. أو على الأقل يغضون من شأنها ويقللون من مكانتها حتى لقد رأيناهم يجعلون الانخراط في

---

(١) البقرة : ١٩٠ ــ ١٩٣ .

مدارسها ونظم تعليمها وتراثها الفكري ، ويشيع فيها الجهل أو التبعية لثقافة الغرب فيما يسمى بالاستعمار الثقافي . في حين أن اليسار يجعل من النظر أمراً عاما وشاملا ، لا يخص فرداً دون فرد ، أو طبقة دون طبقة ، أو شعبا دون شعب ، فلا يوجد عالم والباقي جاهلون ، ولا يوجد شعب متحضر وباقي الشعوب همجية .

ويمكن لليسار إعادة تفسير دجماطيقية اليمين لصالحه خاصة في مجتمع تقليدي ما زال يفكر بعقائده ، وذلك بتوجيه العقائدية لصالح الفقراء والمعدمين ، وتجنيد الطبقات الكادحة وتحزيبها حتى إذا ما تحولت إلى قوة سياسية ضاغطة ، وطاقة ثورية مغيرة ، أمكن بعد ذلك تحويلها من الدجماطيقية إلى الاستنارة ، ونقلها من الايمان إلى النظر .

٢ ـ وتحتوي المقدمة الثانية على نظرية الوجود إجابة عن سؤال : ماذا أعرف ؟ وهنا يتضح أيضاً موقفان : الأول يريد جعل موضوع المعرفة هو الحادث ، المتغير ، الممكن ، ويقصد بذلك العالم الذي نعيش فيه حتى يمكن الانتقال بعد ذلك من الحادث إلى القديم ، ومن المتغير إلى الثابت ، ومن الممكن إلى الواجب . فالعالم هنا محكوم عليه بالفناء من أجل إثبات موجود وراء العالم يكون هو البقاء ، والحكم على العالم بالغناء حكم قاس مدمر لاحساس الناس بالعالم . إذْ كيف يعمل الناس في عالم فان وكيف ينتجون في واقع لاثبات له ولا كيان ؟ العالم هنا ليس إلا وسيلة لاثبات شيء آخر ، هو الله . فالله هو الباقي ، والعالم هو الفاني ، الله هو الغنيّ والعالم هو الفقير المحتاج . ويستطيع الغني أن يفعل بالفقير ما يشاء ، فلا قانون يحفظ للفقير حقوقه إلا رحمة الغني به ، ولا إرادة تقف في مواجهة الُغني إلا فضله وإرادته . ومن ثم فلا توجد قوانين ثابتة للطبيعة ، بل يمكن للحجر أن ينقلب ذهبا ، والعصا ثعبانا ، ويعيش الانسان في عالم يحكمه السحر ، ويدركه بالخرافة ، لا يؤمن به ولا يعيشه بل يجد الانسان نفسه فوقه على نحو عارض ، مصادفة ، وليس له غاية إلا البحث عن الباقي وراء العالم .

وهذا هو اليمين في الفكر الديني الذي تبشر به النظم اليمينية الرجعية التي يهمها سلب عالم الجماهير المستغلة ، والايحاء إليها بأنه عالم فان لا قيمة له ، وبأن القيمة كل القيمة فيما وراء هذا العالم ، وبالتالي تتخلى الجماهير عن حقوقها ، ولا تلتفت إلى ما هو فان

زائلٌ ، وتعكف على ما هو باق وأبدي تحت سمع وبصر النظم الرجعية التي تستحوذ على العلم ولا تعطي الجماهير إلا الضلال .

وفي مقابل ذلك ، هناك اتجاه آخر يجعل هذا العالم باقيا مستقرا ، ويجعل جهد الانسان فيه منتجاً ومؤثراً . فالعالم ليس ممكنا بل واجب ، وليس حادثاً بل قديم يخضع لقوانين طبيعية مطردة ، يمكن للانسان معرفتها والسيطرة على الطبيعة من خلالها ، واستغلالها لصالحه ، وتستعصي على كل محاولة للقضاء عليها أو التدخل في سيرها ، وعليها تتحطم كل الارادات المسيطرة ، وكل القوى القاهرة ، فلا صوت يعلو على صوت الطبيعــة ، ولا قانون يطغى على قانونها ، فالعالم ليس وسيلة لشيء آخر بل هو غاية في ذاته ، وهو ليس فانيا بل باق ، ووجود الانسان فيه ليس عارضا بل جوهري .

وذلك هو اليسار في الفكر الديني . وذلك لأنه في النظم السياسية القائمة على هذه النظرة يكون العمل منتجا في العالم ويكون لدى الجماهير وعي بالعالم ، وثقة بقوانينه المطردة ، وتحافظ على حقوقها ، وتدافع عن مصالحها ضد كل محاولات السيطرة من الخــارج ، وضد كل صور القهر الاجتماعي والسياسي من الداخل . فللجماهير الكلمة العليا ، ولديها ثقة في العمل وفيما تخلفه وراءها من آثار ، ويكون الحكم لها . ومن ثم تفوض النظام الديمقراطي الذي يعمل لصالحها ، وتثور ضد أي محاولة لتركيز السلطة التي يدين لها الجميع بالطاعة والولاء .

وقد يستغل اليمين هذا الموقف اليساري لصالحه عندما يفسر حتمية قوانين الطبيعة واطرادها لصالح النظم التسلطية والرأسمالية ، فيجعل قانون العرض والطلب أو الصلة بين صاحب رأس المال والعمال صلة الرئيس بالمرؤوس ، أو قوانين الربح والاحتكار قوانين طبيعية عليها تقوم الحياة الاقتصادية ، وبالتالي تكون هذه النظم هي النظم الطبيعية التي تفرضها طبيعة الأمور ، كما قد تستغل بقاء العالم واستمراره وصلابته وتخصصه كميدان لنشاط صاحب رأس المال فقط دون العمال ، ولصالح الطبقة المسيطرة دون الطبقات الكادحة التي يظل العالم بالنسبة لها هامشاً لا قوام له ، حتى ينشط صاحب رأس المال ، ويستكين العمّال ، وحتى ينشط ملاك الأرض وينام الفلاحون والاجراء الزراعيون . ولكن

القضاء على خصوصية النظرة ، وتأكيد ثبوت العالم للجميع من شأنه القضاء على استغلال اليمين لموقف اليسار .

كما يمكن لليسار إعادة تفسير موقف اليمين لصالحه وذلك بالاعتماد على لا حتمية قوانين الطبيعة لصالح التوعية الجماهيرية ، فالنظام الرأسمالي ليس نظاما أبديا بل يمكن تغييره ، ونظام الأجور الذي يفرضه صاحب رأس المال ليس نظاما ثابتا بل يمكن تعديله ، وهذا النظام الذي ترى فيه الاقلية المسيطرة أبدع ما انتجه العقل البشري يمكن الثورة عليه وقلبه رأسا على عقب ، وبالتالي تتحرك الجماهير بنفس السلاح الذي أرادت الاقلية المسيطرة على المال والحكم استعماله لتسكين الجماهير وفرض إرادتها عليها كما تشاء .

٣ ـ وبعد المقدمتين السابقتين يظهر الموضوع الأول موضوع الذات الإلهية وهو حجر الزاوية في علم العقائد وأساسه الأول . ويظهر اتجاهان ، الأول ، يثبت هذه الذات بأوصاف ست : الوجـود ، والقدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، وعدم وجودها في محل ، والوحدانية أي أن الذات الإلهية موجودة بالفعل وجـوداً حقيقيا ، وقديمة لا أول لها ، وباقية لا نهاية لها ، ومخالفة للحوادث لا يشبهها شيء ، ولا تشبه شيئاً ، وليست في محل وتوجد في كلِّ مكان ، ووحدانية تنفي الشرك والتعدد ومن ثم يتم تأليه الذات وإعطاؤها كل ما يستطيع الانسان إعطاءه من أوصاف للوجود المطلق خارج الوجود الانساني ومستقلا عنه .

وهذا هو موقف اليمين لأننا إذا انتقلنا إلى النظم السياسية التي تحقق هذا التصور لوجدنا أنها تعتمد على هذا الاثبات للذات المطلقة من أجل إثبات النظم الاجتماعية التي تتركز كلها في سلطة واحدة في القمة ، تتصف بكل صفات الموجود المطلق سواء كان ذلك في السلطة السياسية المطلقة للزعيم أو في السيطرة الاقتصادية المطلقة لرأس المال وبالتالي تكون لدينا نظم تسلطية تقوم على القهر والطغيان وعلى حق الفرد المطلق على حساب الشعب ، أو نظم رأسمالية تقوم على أعطاء حرية الحركة المطلقة لرأس المال على حساب المستهلكين أو حساب الاستثمارات الصغيرة أو على حساب العمال . وهي النظم التي تجعل القمة في السياسة أو في الاقتصاد مصدر النشاط والحركة والقيمة على حساب القاعدة المتلقية

السالبة المأمورة . هذا بالاضافة إلى أن هذا النوع من الإيمان بالوجود المطلق الشامل يعطي الجماهير نوعاً من الاستكانة بالارتكان عليه والاعتماد على سلطاته . فإذا ضاع كل شيء فعلى الأقل يبقى شيء هو البقاء ذاته ، وإذا علم كل شيء فعلى الأقل يوجد شيء واحد هو الوجود ذاته ، وإذا ضاع الأحساس بالزمان وبالتاريخ ، ولم يدر الانسان متى أتى ، وإلى أين ينتهي ، وفي أي مرحلة من التاريخ هو يعيش فعلى الأقل هناك الدائم الذي لا أول له ولا نهاية والذي يضم الماضي والحاضر والمستقبل ، وإذا استعصى على الانسان أن يجد له مكانا في العالم ومحلا يحط فيه فعلى الأقل هناك من لا يحتاج إلى محل أو مكان . وإذا عجز الانسان عن أن يدرك الأمور العينية نظراً للأقنعة التي فوق عينيه فعلى الأقل هناك الادراك الغامض لما لا شبيه له ، وإن عدم الإدراك خير من الإدراك ! فالموضوع الذي لا يرى خير من الموضوع الذي يرى ، والخالص أشرف من الشائب وإذا فقد الانسان كل شيء فعلى الأقل هناك شيء واحد لم يفقده هو الوحدانية الذاتية . ومن ثم يكون الانسان مفقوداً وهو يظن أنه واجد نفسه . ويكون ضائعا وهو يظن أنه قد وصل إلى بر الأمان . فمن يفقد الحبيب يحبّ الحب ذاته حتى يعوض فقده ، ويحول خسارته إلى مكسب ، ويحيل ضعفه قوة .

وفي مقابل ذلك ، هناك اتجاه آخر يجعل الانسان هو الموجود الذي لا يشك في وجوده أحد ، ولا يقدر على إعدامه شيء ، هو القديم بمعنى أن الحقيقة أزلية لا يمكن الشك فيها ، وهو باق بمعنى أنه يستحيل عليه الفناء ، وهو لا يحتاج إلى محل لأن الانسان موجود في كل مكان ، والانسانية لا يحدها زمان أو مكان ، وهو لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء لأنه يتجاوز الأشياء ويفارقها ، ومن ثم ، يقضي هذا الاتجاه على كل تشخيص أو تسكين أو تثبيت للذات ، ويعيد للانسان أخص خصائصه وهو الذاتية ، وتتحول حياة الانسان إلى حركة ونشاط وجهد ونضال بحياة الذاتية فيه وليس بمفارقتها .

وهذا هو موقف اليسار . فالنظم السياسية التي تتبنى هذه النظرة تكون نظماً إنسانية تقوم على الاعتراف بالانسان كقيمة ، لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم ، أو رئيس ومرؤوس ، أو غني وفقير ، أو رجل وامرأة ، فكل انسان له ذاتيته وليس فقط الحاكم أو

الرئيس أو المدير ، وغيرهم الدهماء والغوغاء التي يكون لها الخبز الأسود ولغيرها الأبيض ، أو التي تحشد في المركبات العامة ولغيرها العربات الخاصة ، أو التي تقطن في المساكن الشعبية ولغيرها الفيلات الخاصة .

وقد يحاول اليمين تفسير هذه النزعة الانسانية لصالحه فتنشأ النظم الليبرالية اليمينيّة التي تؤكد على إنسانية فرد واحد دون غيره ، وتظهر النظم الرأسمالية كوريث شرعي لليمين الليبرالي ، كما تنشأ النظم الغربية العنصرية التي تؤكد على إنسانية الغرب دون غيره من الشعوب . ولكن اليسار الديني يكشف عن هذا التفسير اليميني لموقفه ويجعل الانسانية عامة لا تخص فردا دون فرد ، أو طبقة دون طبقة ، أو شعبا دون شعب ويمكن لليسار أن يعيد تفسير ما اعتمد عليه اليمين لإقامة نظم القهر والتسلّط خاصة لدى شعب يمر بمرحلة إيمان تقليدي لا يمكنه التخلي عن فكرة الذات الموجودة الأزلية الباقية وذلك بتفسير هذا المطلق لصالح الضعفاء ، وتوجيه هذه القوة ضد الأقوياء ، فالله موجود فوق كل الوجود . وبدل أن يستعملها الأقوياء ضد الضعفاء يستعملها الضعفاء ضد الأقوياء ، وهو الأقرب للطبيعة . فالله أكبر فوق كل كبير ، وليس الله أكبر فوق كل صغير ، والله أقوى من كل قوي ، وليس الله أقوى من كل ضعيف ، فالوجود المطلق هنا يكون لإعادة خلق المهدد وجودهم بالفناء ولإعادة وجودهم من عدم .

٤ ـ والذات الإلهية المتصفة بهذه الأوصاف الست الماضية التي تشير إلى علاقة الذات بنفسها لها صفات أخرى تشير إلى علاقة هذه الذات بالعالم ، وهي الصفات السبع المشهورة التي ورثناها من القدماء : العلم ، والقدرة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام والإرادة ، وهي صفات مطلقة مثل أوصاف الذات ، ومشخصة بمعنى أنها تصف موجوداً حياً ذا علم وإرادة . ومن ثم تنتزع من الانسان أهم صفاته أعني العلم والقدرة والحياة ، فالسمع والبصر وسيلتان للعلم ، والكلام للتعبير والايصال والمشاركة في الحياة ، والإرادة ـ لتنفيذ القدرة . فالانسان موجود حي له علم وله إرادة أي أن الحياة لها جانبان : النظر والعمل . ولكن تحويل ذلك إلى صنم عقلي ثابت جامد هو نوع من الوثنية اللاشعورية .

وهـذا هـو موقف اليمين . فالنظم السياسية التي تقوم على هذا الأساس تعتمد على

التأليه ، تأليه الحكام ، وتأليه الرؤساء وتأليه القادة ، فالقمة تحتوي على قيمة أكثر مما تحتوي القاعدة ، القمة هي الكمال ، والقاعدة هي النقص ، القمة هي الحياة العالمة القادرة دون القاعدة التي تتصف بالحسد أي الموت والجهل والعجز ، وهي صفات الجماهير ، صم ، بكم ، عمي ! وفي النظم الرأسمالية يتمتع رأس المال بكل مظاهر الحياة والعلم والقدرة ، فهو رأسمال متحرك نشط يتمدد كالاخطبوط كما هو الحال في الشركات المتعددة القوميات ، وهو عالم يسمع ويبصر ، ويقوم على الترشيد ، وتوجيه الأصوات ، وتحديد الأسعار .

أما الاتجاه الآخر فيحاول استرداد هذه الصفات التي هي أخص خصائص الانسان . فالانسان هو العالم القادر الحي الذي يسمع ويبصر ويتكلم ويريد ، وبالتالي يتحول الثبات إلى حركة ، والتأليه إلى نشاط ، والخارج إلى الداخل ، والقهر إلى تحرر ، فالانسان لا يؤله إلا ما يعجز عن تحقيقه ، ولا يعبد إلا ما لا يستطيع أن يناله . إذا كان جاهلا عبد العلم ، وإذا كان عاجزاً أَلّه القدرة ، وإذا كان ميتا عشق الحياة وإذا كان أصمَّ أمل السمع ، وإذا كان أعمى رجا البصر ، وإذا كان أبكمَ تاق إلى الكلام ، وإذا كان عاجزاً تمنى الإرادة ولكن إذا تحققت غاية الإنسان في الحياة ، وأصبح الإنسان عالما ، قادراً ، حياً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً ، مريداً فإنه يحقق صفاته بالفعل ويعود إلى عالمه بعد أن ظل مغتربا في عالم آخر ، منفصم الشخصية ، حيث يكون في عالم الجهل والعجز والموت ويظن أنه بأشواقه قد نال العلم والقدرة والحياة .

وهذا هو موقف اليسار ، ذلك أن النظم التقدمية تحاول أن تعيد بناء الإنسان عالما ، قادراً ، حياً ، وتقضي على مظاهر الجهل والعجز ومشارف الموت التي يتردى فيها الانسان كل يوم . فإذا انتشر التعليم تحقق العلم ، وإذا قامت المؤسسات التي تجعل الشعب قادراً على ممارسة حقوقه السياسية وعلى توجيه السياسة والتخطيط لصالحه تحققت القدرة ، وإذا كان الشعب مستقلا متقدما تحققت له الحياة ، وإذا كان هو صاحب الكلمة ، ويسيطر على وسائل اعلامه أصبح سامعا ، بصيرا ، متكلما ، مريداً ، ومحققا لرغباته .

قد يحاول اليمين استغلال الموقف اليساري لصالحه ، وذلك بتحويل الصفات إلى وقائع

حية ولكن للاقلية المسيطرة وحدها فهي العالمة القادرة ، الحية التي تسمع ، وتبصر ، وتتكلم ، وتريد . وما سواها يظل جاهلا . عاجزاً ، ميتا ، أصمَّ ، أبكَمَ ، أعمى ، لا يريد شيئاً بل يتمنى أن يكون على خلاف ذلك بالوهم أو ـ بالخيال . وتُمَنّي الأقلية الأغلبية ، وتشيد لها المعابد لتأليه عالم التمني المشخص ، وكلما ازداد التأليه ابتعدت الأغلبية عن المطالبة بحقوقها . وقد تستغل العنصرية الحضارية أيضاً هذا الموقف وذلك بجعل الغرب وحده هو العالم ، القادر ، الحي ، وغيره من الشعوب هو الجاهل ، العاجز ، الميت ، ويستحيل للشعوب الأخرى اللحاق بالشعب الأول المختار . ولكن اليسار يعمم هذا التحقيق للجميع لا فرق بين أقلية أو أغلبية ، وينفذ مشاريعه الفعلية وبرامج محو الأمية للقضاء على الجهل ، ويقيم الحزب الجماهيري من أجل الحفاظ على قدرة الجماهير وفاعليتها . ويحرصُ على وعي الشعب ، ففي وعيه حياته . وبامكان اليسار الديني أيضاً إعادة تفسير الموقف اليميني لصالحه وذلك بجعل هذه الصفات المثل الأعلى التي تشد الانسان نحو تحقيقها ، والتي تكون مقاييس لسلوكه ، ومعياراً لما تحقق منها وما لم يتحقق بالفعل ، وبالتالي تكون هذه المثل الغاية القصوى للانسان وليست تسكينا ، وتثبيتا ، وتأليها ، وأرضاء ، وتخذيرا .

٥ ـ فإذا انتقلنا من الذات والصفات إلى الأفعال يظهر أيضاً موقفان : الأول يجعل أفعال الذات مطلقة وشاملة لا تحدّها حدود ، ولا تقف أمامها أفعال أخرى . ومن هنا تنشأ عقيدة القضاء والقدر ، وتثبيت أمر الله التكيني العام الذي يضم كل شيء ، وإثبات أمر الله الذي يخص كل إنسان ويكيف حياته فالانسان جزء من هذا العالم ، يسودُ عليه قضاء الله وقدره ، وليس له قدرة مستقلة أو إرادة خاصة ، وبالتالي فهو ليس صاحب قراره أو مصدر تدبيره . والكسب الا سعري لا ينفصل عن الجبر في الحقيقة لأن شرط الفعل الانساني الحر هو امكانية يولدها الله في الانسان . فالفعل الالهي ما زال هو الشارط ، والفعل الانساني هو الشرط ، ولو لا حدوث هذا الفعل الالهي لما تحقق الفعل الإنساني . الفعل الإلهي أشبه بمركبة صاعدة إلى قمة الجبل ، والفعل الإنساني أشبه براكب دراجة يمسك بالمركبة . وليس هناك أي بقاء للفعل الإنساني في ذاته ، فالفعل الإلهي يضعه أيضاً ويحتويه . فالفعل الإلهي سابق على الفعل الإنساني ، ومعه ، وبعده ، والفعل الإنساني ما

هو إلا تابع لمتبوع . وكل ما يحدث في أفعال الشعور من هداية أو ضلال أو توفيق أو خذلان يحدث بالفعل الإلهي . وكل ما يحدث في الخارج من تحديد للآجال الداخلة والأرزاق والأسعار يحدث بالفعل الإلهي وليس نتيجة للأوضاع الاجتماعية . وهذا هو موقف اليمين .

فإذا انتقلنا إلى النظم السياسية القرينة لوجدناها أيضا تؤكد على سلطة الفرد المطلق ، وعلى قدرته الشاملة ، وعلى أولوية فعل الحاكم على المحكوم ، وأن المحكوم بين أصبعين من أصابع الحاكم يقلبه كيف يشاء . فالنظم الدكتاتورية هي التي تروج لأفكار القضاء والقدر وهي التي توحي للجماهير بأنها لا خبرة لها في أمرها إلى آخر ما تزخرُ به أمثلتنا الشعبية وأغانينا اليومية ، وعبارات المآتم والأحزان عندما تحل المصائب ، مطالبين بالصبر والعزاء والسلوان .

والموقف الآخر هو الذي يثبت حرية الإنسان ، واستقلال إرادته ، وإن الانسان خلاق أفعاله ، وصاحب قراراته ، وأن فعله أوّليٌّ غير مشروط ، وأن فعله أساس وليس تابعاً ، وهو موقف اليسار . فالنظم السياسية التقدمية تثبت حرية الإنسان وقدرته ، وخلقه لأفعاله ، وأن للإنسان قدرة واستطاعة فعلية سابقة على الفعل في صورة روية وتدبر ، وانتظار وتخطيط ، ومع الفعل في صورة باعث ونشاط ، وحركة وتحقيق ، وبعد الفعل في صورة بقاء واستمرار لاثار الفعل إلى ما لا نهاية حتى أنه ليصبح سُنَّة يحتذى بها ، وقدوة للأجيال القادمة . كما تؤكد أن الجماهير هي صاحبة القرار ، وتصر على حق تقرير المصير ، وحق التعبير ، وحرية القول والعمل كتطبيقات لحرية الإنسان وممارسته لها .

وقد يستغل اليمين حرية الإنسان لصالحه الخاص . فالنظم الليبرالية تقوم أساسا على تأكيد حرية الإنسان في شتى مظاهرها ، ولكنها حرية الأقلية ضد الأغلبية ، وحرية ممارسة الجنس ، وارتكاب العنف والجريمة ، والسلوك الفوضوي الشامل ، كما قد تكون اعلانا لحقوق الإنسان ، وتأكيداً لحرياته في الغرب وحده ، أما الشعوب الأخرى فهي غير مؤهلة إلا للتبعية والطاعة والتقليد . ولكن الموقف اليساري هو الذي يقرن الفعل الحر بالمسؤولية فتكون أفعال الإنسان ملتزمة بقضايا الواقع ، ومحققة لبرامج تطويره . وقد يحاول اليسار

تفسير الجبرية أو عقيدة القضاء والقدر لصالحه خاصة في شعوب ما زالت أسيرة التقاليد ، وطائعـة للموروث . وذلك بإثبات الشجاعة المطلقة ، والتأكيد على الدور البطولي للإنسان ، فإذا كان الموت مكتوبا فلم العيش في الضيم ؟ وهذا ما حاوله الأفغاني من قبل في إعادة تفسير عقيدة القضاء والقدر على أنها رفض للمذلة والهوان ، واطلاق لقوى الجماهير الحبيسة ، وزعزعة الخوف من نفوسها . فهذه العقيدة لا تؤدي إلى القبول بل إلى الرفض ، ولا تبعث على الاستكانة والرضا بل تبث روح الثورة والنضال .

٦ ـ ولما كان كل دين يقوم على وحي شفوي ثم يتم تدوينه أما مباشرة أو بعد عدة أجيال تقل أو تكثر نشأت مسألة سلطة الكتاب وصلته بسلطة العقل ، وهي مسألة العقل والسلطة ، وباصطلاحاتنا القديمة مسألة العقل والنقل . ونجد هنا أيضا موقفين : الأول يجعـل السلطة سابقة على العقل ، والعقل تابعا للسلطة . والثاني يجعل النقل أساسا للعقل ، والعقل تابعا للنقل . ويترتب على ذلك اهدار للعقل وهو القاسم المشترك بين الناس وإنكار بداهته وحدسه وأولياته وهي أساس العلم وبداية المعرفة ، والارتكان إلى بداية أخرى أقل يقينا وذلك لأنها نصوص مكتوبة ، قد تكون صحيحة تاريخياً وقد تكون محرفة لأنها نصوص مكتوبة باللغة وخاضعة في فهمها لقواعد اللغة ومناهج التفسير . وقد تكون مكتوبة بغير لغتها الأصلية ، مما يسبب ضياع المعنى الأوّلي المقصود للكلمات ، ويختلف فهم الناس للنصوص ، فكل لغة تحتوي على الحقيقة والمجاز ، الظاهر والمؤول ، المحكم والمتشابه ، ولا يوجد نص واحد حتى ولو كان صريحا لا يختلف عليه اثنان . وهذا طبيعي نظرا لأن التفسير يحق التعبير عن النص من خلال تجربة حية للانسان ، يعيش في زمان معين ومكان محدد ، ولا يوجد فردان متشابهان تماما في كل شيء . كما أن التفسير يخضع لا هد الله والغاية منه ومضمونه ومادته ، فقد يتم التفسير لصالح الاقلية ضد الأغلبية ، كما قد يتم لصالح الأغلبية ضد الأقلية . وقد يظهر تفسير رأسمالي للدين وآخر اشتراكي له ، ومن ثم كان النص تابعاً للموقف الاجتماعي ولوضع المفسر وأهدافه ، واهتمامه وولائه . وهذا ما يفسر لنا تعارض النصوص وهو في الحقيقة اختلاف في المواقف التي تستعمل فيها هذه النصوص . فالموقف الذي يجعل النقل ، بكل شبهاته ومخاطره ومظناته هذه ، أساسا للعقل هو موقف اليمين حتى يلتبس الباطل بالحق ، وتضيع حقوق

الشعوب في متاهات المفسرين وتضارب وجهات النظر ، ما دام كل شيء فيه قولان ولا يزعج أحد لبداهة الجماهير بالتبعية للسلطة دون إعمال العقل ، والتبعية لسلطة الكتاب المقدس هي أسرع الوسائل وأكثرها فاعلية ، تستعملها السلطة السياسية من أجل توجيه الجماهير نحو التبعية لها . فكلاهما سلطة ، فالتبعية لسلطة الكتاب المقدس هي بمثابة تأهيل النفس لتبعية السلطة السياسية ، والجماهير التي تتأهل نفسها على التبعية ويقوم بناؤها النفسيّ على التبعية تتبع أي شيء . فأولوية النقل على العقل تحمي النظم الرجعية من استعمال الجماهير لوسائل البحث أو السلطان أو صاحب رأس المال أو المدير أولها ، وتفسح المجال للسلطة السياسية لاختيار نوعية المتبرع الذي قد يكون الله أو الأمير أو الملك أو السلطان وصاحب رأس المال أو المدير أو الرئيس .

في مقابل ذلك ، هناك موقف آخر يجعل العقل هو الأساس ، وسلطة الكتاب التي تقوم على هذا الأساس تجعل للعقل الأولوية على النقل ، وذلك لأن العقل يؤدي إلى اليقين ببداهته وأولياته وبراهينه واستقراءاته في حين أن النقل لا يؤدي إلا إلى الظن برواياته وتفسيراته ظنّاً " لمن يتم التفسير؟ " وأن الظن لا يغض من الحق شيئاً . ولو تضافرت كل الحجج النقلية على شيء فأنه يظل طنيناً ، ولا يتحول إلى يقين إلا بحجة عقلية فكل من بدأ يقول : قال الله وقال الرسول فأنه لا يبغي مصلحة الناس في حين أن كل من تحدث حديث العقل وأعطى احصاء للواقع فأنه يدافع عن مصلحة الناس ، ومستعد لمقارعة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . والاحصاء حجة دامغة لأنه دليل الحص والمشاهدة ، وهو يقين مثل يقين العقل . وهذا هو موقف اليسار ، إذ تعتمد النظم التقدمية على المبادىء العامة التي هي المبادىء العقلية الشاملة ، وهي في نفس الوقت قوانين المجتمع ومسار التاريخ .

وقد يستغل اليمين هذا الموقف اليساري لحسابه فيعتمد على العقل لترشيد مصالح الأقلية . ولتنظير توظيف رأس المال ولتبرير الوضع القائم وصور الاستغلال والاحتكار ، ولكن العقل هنا لا يكون هو العقل البسيط بل يكون هو الهوى والمصلحة أو العنصرية التي لا يؤيدها العقل أو التجربة ولكن حرص اليسار على بداهة العقل وشموله وموضوعته ضمان لعدم استغلال اليمين له . كما يمكن لليسار إعادة تفسير النقل لصالحه خاصة في

مجتمع مؤمن بالنصوص ويعتمد على العقل ، ولكن النصوص يتم تفسيرها لصالح الطبقات ومتطلبات الواقع كعامل مساعد لدليل العقل وبرهان التجربة .

وترتبط بموضوع العقل والنقل تصورات وتطبيقات تنتج عنهما مثل موضوع الخير والشر أو كما يقال باصطلاح القدماء الحسن والقبح وموضوع الصلاح والاصلح ، ومسألة الغائية في الكون . وهنا نجد أيضاً موقفين : الأول يجعل الخير والشر من الله وجوداً وحكما بمعنى أن كل شيء في هذا العالم خيراً كان أم شراً من فعل الله وليس من وضع البشر ، وأن الحكم على ذلك بأنه خير ، وعلى ذلك الشر بأنه شر يأتي من الله أيضاً بأوامره ونواهيه ، فالشيء خير لأن الله أمر به وشر لأن الله نهى عنه ، وكل شيء في هذا العالم بخيره وشره لا يخضع لقانون ، ولا يبغي مصلحة ولا يهدف إلى غاية بل من فعل الله حيث لا تعليل لأفعاله بمصالح العباد ، ولا تبرير لها برعاية الصلاح والاصلح . وهذا هو اليمين في الفكر الديني ، ويتحول ذلك في السياسة إلى ايديولوجية اليمين الرجعي الذي يجعل من الخير والشر وضعين كونيين لا حيلة للإنسان فيهما حتى يمكن تبرئة النظام الرأسمالي من الشرور والآثام ، وجعل الفقر والاستغلال وضعين طبيعيين في الكون لا غرابة فيهما ، ولا تجوز الثورة عليهما ، ولا يوجد جد نظام يرعى مصلحة الناس إذ لا يوجد صلاح أو أصلح بل توجد أوضاع لا عقلية لا يمكن فهمها . كما أن الكون لا الناس والسيطرة عليهم وإبعادهم عن التساؤل وفهم الأسباب وربط العلة بالمعلول .

وفي مقابل ذلك ، هناك اتجاه آخر يجعل الخير والشر وضعين اجتماعيين من صنع الإنسان ، نتيجة لفعل داخلي في العالم وليس نتيجة لفعل خاص خارجي عن العالم . وإن الإنسان هو المسؤول عن ذلك ، والإنسان هو واضع النظام الاجتماعي ، ومن هناك ذنب وإدانة وليس حكما ببراءة العالم ومسؤولية الله ، بل حكم بمسؤولية الإنسان وبراءة الله . ومن ثم كان واجب الإنسان وقضيته الأساسية هي في تغيير الشر إلى خير ، وفي درء الشرور واستجلاب الخير ، وبالتالي تتحرك الجماهير وتتحزب ، وتمارس حقها السياسي وتتحمل مسؤوليتها القومية . وهذا العالم يهدف إلى رعاية الصلاح وللاصلاح ، فالاصلاح أن يشارك العامل في رأس المال والاصلح أن تكون الأرض لمن يفلحها ، والاصلح الملكية

العامة لوسائل الانتاج ، وبالتالي يمكن تغيير المجتمع ، ونقله من وضع حسن إلى وضع أحسن ، ومن نظام صالح إلى نظام أصلح كما أن هذا العالم يسير وفقاً لغاية ، يمكن للانسان ادراكها والسيطرة عليها لصالحه ، فهو عالم فإلى لا صفة فيه ، ولا تحدث فيه وقائع خبط عشواء . وهذا هو موقف اليسار .

تدخل الموضوعات الأربع الماضية ، الذات والصفات ، والأفعال بشقيها خلق الأفعال ، والعقل والنقل ضمن الالهيات التي تشمل نظريتي التوحيد والعدل أو ضمن العقليات وهي الأمور التي يمكن الوصول فيها إلى يقين عقلي والتي تعتمد على برهان العقل بالاضافة إلى برهان النقل والتي يكفر فيها منكروها أعني وجود الله ووجود الإنسان من حيث هو إرادة حرة وعقل مستقل قادر على التمييز بين الخطأ والصواب . أما الموضوعات الأربع التالية : النبوة ، والمعاد ، والأسماء والاحكام ، والإمامية فإنها تدخل في نطاق السمعيات التي لا يمكن الوصول فيها إلى يقين عقلي والتي لا تعتمد إلا على النقل وحده ومن ثم فهي ظنية لا يكفر منكروها .

وهنا أيضاً يبدو موقفان : الأول اليمين الديني الذي يحاول الجمع بين المجموعتين فيرد العقليات " الالهيات " إلى السمعيات ، هادما الأساس العقلي اليقيني الذي تعتمد عليه ظانا أنه بذلك يدافع عن عقائد الدين وهو في الحقيقة يزايد فيه . ولا يدري أنه بارجاع العقليات إلى السمعيات انما يرجع اليقين إلى الظن هادما ما بناه القدماء ، ثم يجعل اليمين الديني السمعيات كلها التي شملت كل شيء تقريبا يقينيات يكفر منكروها أو المختلفون في تفسيرها ، وهو بهذا يساوي الله ، وهو اليقين بأمور المعاد وهي الظنيات مزايدة في الدين ، ومغالاة فيه ، وقطعاً لا يرضاه المتدينون ولا العقلاء على حد سواء . هذا هو موقف اليمين ، إذ تحاول النظم اليمينية الرجعية إرجاع كل المسائل إلى الدين ، وترى في معاناة الشعب ومآسيه غضب الله وانتقامه ، وتقسم الناس إلى مؤمنين وكفار ، وتخلط بين الأهم والأقل أهمية حتى يظل سيف الدين دائما مسلطا على الرقاب ، فيخشى الناس الحركة إمّا لفهم الأمور النظرية أو للتحرك العملي من أجل المطالبة بالحقوق .

وفي مقابل ذلك ، هناك اتجاه آخر يحاول توسيع نطاق العقليات ومدها حتى يشمل

اليقين الظن وبحتمية من أجل الحصول على اليقين أيضاً في السمعيات حتى يطمئن الناس إلى مسائل النبوة والمعاد وحتى يعلموا حقيقة الإيمان وواجبات الحاكم وشروطه . وهي موضوعات مهمة للغاية في عصر نرى الفصل فيه بين الإيمان والعقل ، ونرى حيرة الناس فيه وشقاءهم في نظمهم السياسية الحالية ، وتساؤلهم عن السلطة السياسية ومدى شرعيتها في البلاد . وهذا هو موقف اليسار ، إذ تحرص النظم السياسية التقدمية على إبراز أهمية العمل ، وأولويّته على المنظر ، كما تحرص على إبراز المشكلة السياسية وكيف أنها هي مفتاح المشاكل الأخرى ، فالأولويات في التخطيط قرار سياسي وليس اقتصاديا ، ومحو الأمية قرار سياسي وليس مجرد امكانيات مادية .

٧ ـ ولما كان كل دين يقوم على وحي ، وكل وحي يوحي إلى نص كان موضوع النبوة هو الموضوع الخامس في علم أصول الدين القديم بعقلياته وسمعياته ، وأول موضوعاته السمعية . وهنا يبدو موقفان : الأول يجعل النبوة ضرورية ، وأنه لا قوام لحياة الناس دون نبوة ، وأن الانسان قاصر عقلا عن إدراك مصالحه ، وعاجز واقعا عن توجيه أموره ، ومن ثم فهو يحتاج إلى وصايا من الخارج ، وإلا ظل كالحيوان ينعق وينهق أو أضلّ سبيلا . ودليل صدق النبوة دليل خارجي هو المعجزة بمعناها التقليدي أي خرق قوانين الطبيعة ، وقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا . وهذا هو موقف اليمين ، إذ تقوم النظم اليمينية الرجعية بتدعيم هذا الاتجاه وتقوم على أنّ الانسان قاصر على ادراك مصالحه ، ويحتاج إلى توجيه ووصايا من الحاكم أو من المدير أو من الرئيس أو من الشيخ ... ومن ثم يصبح الانسان آلة طيعة في يد قُوى تسيره كيف تشاء ولا ضامن لها ولا مراجع أو رقيب عليها وكما يقوم النبي بالمعجزات يقوم الزعيم السياسي أو صاحب رأس المال بمعجزات مشابهة ، يهزم الزعيم العدو في ساعات ، ويحل المؤسسات ويعقدها في غمضة عين ، فتثق في أقواله الجماهير ، وتعطيه الثقة كل الثقة ، ويشيد صاحب رأس المال المصنع في أسابيع ، ويضاعف الرّبح في ساعات ويسيطر على السوق في دقائق ، ويقيل الحكومات ويؤلفها في ثوان .

وفي مقابل ذلك ، هناك اتجاه آخر يرفض كل أشكال الوصايا على الإنسان ، ويجعله

مستقلا قادرا لا يحتاج إلى عون خارجي نظري أو عملي ويضع الإنسان في تطور التاريخ . كان الإنسان قبل آخر مرحلة من مراحل الوحي قاصراً عن إدراك الأمور النظرية ، وعاجزاً عن تحقيق مطالبه العملية ، ومن ثم كان ظهور الأنبياء ضرورة تحتمها ظروف العصر في مراحل التاريخ السابقة ، وكانت الأنبياء تظهر في كل عصر ، وكان لكل قوم نبي ، وكل نبي يدفع بالتقدم الانساني خطوة إلى الأمام ثم يتلوه نبي آخر يدفع التقدم خطوة أخرى حتى إذا ما تحقق استقلال الإنسان وكماله من الناحيتين النظرية والعملية ، وأصبح قادراً على إدراك الأمور بعقله ، وتحقيقها بعمله توقف ظهور الأنبياء ، وأصبحت النبوة غير ضرورية . كانت ضرورية في الماضي وأصبحت غير ضرورية في الحاضر بدليل توقفها في المستقبل . والدليل على صدق النبوة ليس خرقا لقوانين الطبيعة ، فقوانين الطبيعة ثابتة ومطردة حتى تستقيم أحوال الناس ، ويثقوا بالعالم الذي يعيشون فيه بل هو دليل داخلي محض ، وذلك عن طريق التصديق بالوحي . وايجاد البراهين العقلية والحسية على صدق محتواه ، وفاعلية مضمونه وأثره في اصلاح أحوال الناس ، وتدبير أمور معاشهم . وهذا هو موقف اليسار ، إذ لا تحاول النظم التقدمية فرض أية وصايا على الانسان أو أن تعتبر الجماهير قاصرة عن ادراك حقوقها بل على العكس من ذلك يتعلم الانسان من الجماهير ، ويتخلص من وصايا التعليم الحضري وأفكاره المسبقة . فلا ضمان إلا الشعب ، ولا مراجع إلى المؤسسات الديمقراطية ، ولا حارس إلا الحزب ، عصب الجماعة .

والحقيقة أن اليمين يؤمن بهذا الاستقلال للإنسان في عقله وإرادته ولكنه يستغله لصالح الحاكم أو لصالح صاحب رأس المال أو لصالح الاقلية المسيطرة . أما فيما يتعلق بالعامة أو ما يطلق عليه اليمين الدهماء أو الغوغاء فتفرض الوصايا عليهم ، وما أسهل فرض الوصايا باسم الأنبياء : ولكن يستحيل على اليسار أن يعيد تفسير موقف اليمين لصالحه لأن فرض الوصايا النظرية والعلمية على الناس موقف ناضج لا يمكن اعادة بنائه ، اللهم إلا لأمر التأكيد على أهمية الايديولوجية للناس ، فالدين بقاموس العصر السياسي هو الايديولوجية ، والانسان بلا أيديولوجية انسان مائت ، ولكن الايديولوجية ليست وصايا مفروضة على الانسان بل هي تعبير نظري عن واقعه ، وتنظير مباشر لاحتياجاته . وتحقيقٌ على مستوى الفكر لمتطلباته ، وتخطيط دقيق لكيفية الممارسة ، وتحقيق هذه المتطلبات

بالفعل . أو أن تكون الوصايا من القواعد الجماهيرية على قياداتها وبالتالي تأخذ معنى الرقابة والمراجعة .

٨ ـ وإذا كانت النبوة تتناول ماضي الانسان على الأقل فإن موضوع المعاد قد يكون هو الموضوع الأساسي في السمعيات ، فلا يوجد دين إلا ويتناول موضوع الاخرويات إجابة عن سؤال : ماذا يحدث للانسان بعد الموت ؟ أو سؤال : ماذا آصل ؟ وهنا يبدو موقفان : الأول يجعل الله هو الذي يميت وأن الموت حادث بقضاء الله وقدره وواقع بفعل الله وليس بفعل الأمراض وحوادث الطريق أو الاغتيالات . والموت يفترض قسمة الانسان إلى قسمين: بدن ونفس ، الأول فان ، زائل ، لا قيمة له ، يتحلل إلى تراب ، والتالي باق ، خالد ، تتم به التزكية ، وينتظر الحساب . وتبدأ الرحلة بعذاب القبر ونعيمه ، ولا ندري هل يتم ذلك بالبدن الذي يتحلل أم بالروح التي صعدت إلى بارئها ؟ ثم تبدو وقائع الحساب ، وإثبات الجنــة والنار ، كواقعتين حسيتين ، مع إثبات الميزان والصراط ، والحوض ، وناكر ونكير ، وعلامات الساعة من انشقاق القمر وشروق الشمس من مغربها وغروبها من شرقها ويأجوج ومأجوج ، وحروج الدابة ، والمسيح الدجال . فإذا تم الحساب فإنه يحدث طبقا لارادة القاضي الذي لا يخضع لقانون العدل بل بناء على رحمته ، قد يعفو عن المسيء ، وقد يعاقب المحسن ، ولاراد لقراره . فإذا تم الثواب فإنه يحدث طبقا لأعمال الفرد ، وينال الفرد ثوابه ، وتتفاوت الجنة في الدرجات ويعيش كل انسان فردا ، كل حسب درجتــه في الثواب ، فهناك منازل وقصور تتفاوت فيما بينها في العظمة والثراء . وهذا هو موقف اليمين العادي ، إذ تعتمد النظم اليمينية الرجعية على أمور المعاد لترغيب الناس في مستقبل ليس لهم في الحاضر ، وتُغْريهم بعالم من الرفاهية ورغد العيش حرموا منــه في هذا العالم ، فيجد المحرمون تعويضا نفسيا عما حرموا منه ويتشوقون إلى مالم ينالوه ، وبالتالي تطمئن النظم السياسية إلى وضعها الحالي ، وإلى استكانة الناس ، وإلى رضاهم بالوعود المستقبلية ما دامت لن تتحقق في هذا العالم فيستغل صاحب رأس المال ويحتكر ويسيطر ، وهو مطمئن البال إلى استتباب الأمن وانتظار الناس اليوم الموعود !

وفي مقابــل ذلك ، هناك موقف آخر ، يجعل الموت واقعاً بأسبابه المباشرة مثل

الأمراض ، وحوادث الطريق ، والاغتيالات ، والحروب ، وبتغيير الواقع تقل أسباب الموت ويحيا الانسان ، فالواقع يمكن تغييره إلى واقع أفضل والموت يمكن الاقلال من نسبته بالقضاء على الأمراض ، وتنظيم المرور ، ونشر السلام الداخلي والخارجي . أما الإنسان فإنــه وحدة لا انفصام لها لا يهم تسميته بدنا أم نفسا أم جسما أم شعورا إلى حياة أم روحا . بل إن بقاء البدن أجدى للانسان المتخلف من بقاء النفس ، فالبدن هو الذي يُميت النفس ويقضي عليها ، والانسان يموت بسبب مرض بدنه ، وفقر بدنه ، واهمال بدنه ، وحشــر بدنه ، وتحويله إلى شيء طبيعي . وكيف يكون البدن فانيا وتثبت أن النفس لا تَفْني ؟ أما ماذا يحدث بعد الموت فان كل ذلك تصوير فني ومجاز عن عالم الأمل الذي يعيشه الانسان ، ثقة منه في عالم أفضل من أجل تغيير هذا العالم وليس من أجل تثبيت النظم القائمة تعويضا عن حرمان . وأن السيء سينال عقابه ، وأن المحسن سينال ثوابه ، وأن العمل وحده هو مصدر قيمة الانسان ، وأن اللغة بمجازها أقدر على تصوير المعاني وإيصــالها لأكبر قدر ممكن من الناس بصرف النظر عن مستويات تعليمهم ودرجات ثقافتهم ، والتأثير في نفوسهم من أجل توجيه السلوك ، وسيتم الحساب طبقا لقانـــون العدل ، كل حسب عمله وليس طبقا لقانون الرحمة وتبعا لارادة القاضي ، فالمسيء لا بد أن ينال عقابه والمحسن لا بد أن ينال جزاءه . ولا يعني ذلك بالضرورة وجود درجات في النعيم ، ومنازل صغيرة ، وقصور شامخة ، بل يأتي الخلود للعمل وللجماعة من خلال آثار الانسان وصفته الحميدة على الأرض ، وذكراه الطيبة التي يتركها في نفوس الآخرين . وهذا هو موقف اليسار لذلك نجد الحركات الثورية حركات مستقبلية تؤمن بأن الخلاص لا بد آت في النهاية . وفرق بين أن يستغل اليمين هذا البعد الانساني ، وهذا الشوق للأمل ، والتطلع إلى عالم أفضل من أجل تخدير الناس ، ووعدهم بسراب ، وبين تحقيق اليسار لهذا الأمل بالفعل ، في حياة الناس ، وفي هذا العالم .

٩ ـ ولما كانت الأخرويات تعني أن العمل وحده هو مصدر القيمة فان موضوع الأسماء والأحكام يصبح أصلا من أصول الدين ، وتعني الأسماء والاحكام معاني الاسلام والايمان ، وأحكام الكفر والفسوق والنفاق ، ويكــون السؤال : ما الصلة بين الايمان والعمل ؟ وهنا يبدو موقفان : الأول يجعل الايمان مجرد الشعور الباطني وهو ايمان عامة

الناس الذي لا يتحول إلى فكر أو إلى قول أو إلى عمل . أو يجعله ايمان الشعور الباطني من حيث هو ايمان المثقفين الذي لا يتحول إلى قول أو أي عمل . أو يجعل الايمان مجرد القول والنطق بالشهادتين ولا يدري ماذا وراءهما من شعور أو فكر وماذا يتلوهما من عمل وهو ايمان المنافقين . ويكتفي هذا الموقف بأنصاف الحلول ، فالشعور الباطني كاف والايمان العقلي كاف ، والقول كاف ، والمطالبة بالعزيمة شيء بعيد المنال ، ويكفي في ذلك الرخصة ! . وهذا هو موقف اليمين ، فالنظم الرجعية لا تطلب من الناس أكثر من شعورهم الباطني حتى تَأْمَنَ السنتهم وأفعالهم لأنهم إذا تحدثوا فضحوا ، ودافعوا عن حقوقهم ، وإذا عملوا ثاروا ضد الظلم الواقع عليهم ، ولا تطلب من المثقفين أكثر من الايمان العقلي ، وهو نوع من الترف الفكري تأمن به هذه النظم ثورة المثقفين إذا ما هم تحدثوا وعبروا عن فكرهم ، وإذا ما هم عملوا على قيادة الجماهير المضطهدة . لا تطالب هذه النظم بأكثر من التلفظ بالشهادتين حتى يظن الناس أنهم مؤمنون بمجرد القول خاصة إذا كان قولا فارغا بلا مضمون ويصبح النفاق الديني هو أسلوب الممارسة في النظم اليمينية الرجعية ويصبح الاستغلال هو الاساس . فتقام الشعائر الدينية من أجل التعمية والتغطية على ما يدور في الواقع ، والتستر على ما يحدث في حياة الناس .

وفي مقابـل ذلك ، هنـــاك موقف آخر يجعل الايمان والعمل وحدة واحدة لا انفصام لها ، وأن من لا عمل له لا ايمان له ، وأن الايمان الذي لا يتحقق في صورة أعمال لا يكون له وجود ، فالعمل هو جوهر الايمان ولا توجد أنصاف الحلول ، فالايمان بلا عمل لا وجود له ، والايمان بلا شعور داخلي أو تصديق عقلي أيضاً مجرد عاطفة هوجاء والايمان بلا قول يجهر بالحق ايمان ذليل مهان . وهذا هو موقف اليسار ، إذ تعطي النظم التقدمية الأولوية للعمل على النظر ، وتنقد المثقفين الذين يكتفون بالتصديق العقلي دون ممارسة فعلية وتجند الجماهير من أجل المطالبة بحقوقها قولا وعملا . ومعروف عن هذه النظم أنها من أنصار الحلول الجذرية في السياسة ، ولا ترضى أنصاف الحلول أو المساومة على حقوق الطبقات الكادحة أو الموالاة للطبقات المستغلة .

وقد يحاول اليمين استغلال موقف اليسار الجذري ولكنه يقصره على صاحب رأس

المال أو على الحاكم وحده فالأقلية المسيطرة وحدها تنفذ وعيدها تعمل بما تقول ، وتنفذ ما تقرر في سيطرتها على الطبقات الكادحة وتحكمها في أرزاقها . ويمكن لليسار أيضاً إعادة تفسير موقف اليمين لصالحه في بداية الثورة ، والناس لم تتعود بعد عليها وعلى متطلباتها ، فالتعاطف مع الثورة مقبول ، والذي يؤيدها بفكره يساهم ، والذي يدافع عنها بالقول يشارك وينصر ، والذي يضع فيها عقله وقلبه وقوله وعمله هو الثائر المناضل حقا . فتبعا لمراحل التحقيق الثوري يمكن مطالبة الجماهير بالتزامها على قدر طاقاتها الثورية حتى تنتصر الثورة ، حينئذ لا يطلب بأقل من وحدة الداخل والخارج ، وهي وحدة الشعور والفكر مع القول والعمل .

١٠ ـ وبعد العمل الفردي يأتي العمل الجماعي ، ويُظهر موضوع السياسة كآخر موضوع تقليدي في علم أصول الدين القديم . ويظهر موقفان : الأول موقف اليمين الذي يجعل السياسة ملحقا لعلم أصول الدين ، وليست أصلا من أصوله كالتوحيد والعدل ، فهي أقرب إلى الفقه والشريعة منها إلى أصول العقائد النظرية ، مما يهبط حماس الناس السياسي لما كانت السياسة فرعا لا أصلا ، وكان الدين هو العقائد ، والعقائد لا شأن لها بحياة الناس وصلبها في السياسة ، فما دام الناس قد آمنوا فلا تهم نظمها السياسية ، فقد خلق الله الجن والإنس لعبادته وليس لإقامة شريعته ، وهو الموقف الذي يجمد الدين ، ويحصره في العبادة ، ويستل السياسة من الممارسة اليومية للمؤمنين ، فقد لعن الله ساس ويوس ! وهذا يسمح للنظم اليمينية الرجعية أن تفعل ما تشاء ، تصول وتجول ، فهذا ليس من اختصاص الله ولا من حق المؤمنين !

وهو أيضا الموقف الذي يجعل المشكلة السياسية كلها مركزة حول شخص الإمام أو الزعيم ، خصاله وصفاته ومحامده ، أثاره ومناقبه إذا صلح الراعي صلحت الرعية ، وإذا حضر الإمام حضر المأمون . أما المؤسسات الدستورية مثل بيت المال ، والخراج ، والحسبة ، والقضاة ، والولاية ، وحق الشعب في الرقابة فلا يدخل ذلك كله في موضوع السياسة ، فقد انحصرت السياسة في شخص الإمام كما تنحصر العبادة في ذات الله ، وكما ينحصر الدين في الايمان بالله . وكما قال الفارابي من قبل : سواء كنت أذكر الله أو الرئيس فإنني

أعني شيئا واحدا! وتقوم النظم اليمينية الرجعية باستغلال ذلك أحسن استغلال فتؤله الزعماء ، وتذكر محامدهم ، وتنشد لهم ، ويرقص ممثلو الشعب طربا ومرحا ، يحمدون الله على سلامة الزعيم حتى ولو انهارت البلاد ، واحتلت أراضيها ، وانتهكت سيادتها ، وطعن شرفها .

وهو الموقف أيضاً الذي يجعل الإمام من قبيلة معينة وليس بناء على التزامه بمبادىء سياسية أو ببرنامج اجتماعي وكأن الانتساب العرقي أو السلالة الوراثية تشجب الالتزام والتعهد بالبرنامج . لذلك كانت النظم الملكية والوراثية أقرب إلى النظم اليمينية من النظم الجمهورية والشعبية .

وهو الموقف الذي يجعل الحاكم بالانتخاب ، ويكون دور الجماهير التبعية والولاء ، والسمع والطاعة ، فالحاكم لا يخطىء ولا يضل ، لأنه حاكم بأمر الله عصمة من الخطأ واتقاءً للزّلل ، فتسلم الجماهير له أمرها كي يقودها إلى بر الأمان !

وهو الموقف الذي يعد الناس بالنصر في المستقبل وتحمل آلام الحاضر ، وأن القائد لا بد أنه آت وإن احتفى اليوم خوفاً على نفسه في وقت لم تختمر فيه الثورة بعد وتنتظر الجماهير جيلا بعد جيل ، وتتحمل آلامها عصرا بعد عصر والقائد لم يظهر بعد !

وفي مقابل ذلك كله ، هناك موقف آخر يجعل من السياسة أصلا لا فرعا ، وأنها هي المحققة لأصول الدين وأن الله والشعب صِنْوان ، فصوت الله هو صوت الشعب ، وأنه لا يمكن تصور الله بدون أمة ، وخلافتها له . ويكون التوحيد حينئذ هو التوحيد بين النظام الانساني والنظام الإلهي في حاكمية أنه من خلال الدستور ، وعدم الرضا بهذا الفصم بين شريعة الأرض وشريعة السماء . لذلك تحاول النظم التقدمية بقدر وسعها تحقيق نظام عادل تذوب فيه الفوارق بين الطبقات ، وتقوم على الملكية العامة لوسائل الانتاج منعا للاستغلال وللاحتكار ، وتضع أهدافها ، وبرامج تنميتها محاولة تحقيقها ، والوصول إليها .

وهو الموقف الذي يجعل الفكر السياسي يدور حول بناء المؤسسات الدستورية ، اعلان استغلالها . ومن ثم ، كانت النظم التقدمية ضد عبادة الاشخاص . الزعماء ترحل ،

والشعوب تبقى ، والمؤسسات القوية لا يستطيع أي حاكم افسادها . بل إنها قادرة على عزل الحكام والولاة ، فصلاح الراعي بصلاح الرعية .

وهو الموقف الذي يجعل ولاء الحاكم للمبادىء ، والتزامه بالدستور بصرف النظر عن انتسابه الطبقي و نسبه القبلي ، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . الحكم للمبادىء ، لا للاشخاص ، وما الأشخاص إلا ممثلة لسلطة تنفيذية خالصة لا تشريعية ولا قضائية .

وهو الموقف الذي يجعل الحاكم بالانتخاب المباشر أو غير المباشر ، من أهل الحل والعقد والذي يرفض كل مظاهر التعيين سلما أو قوة بقرارات أو انقلابات . لذلك كانت النظم التقدمية ديمقراطية بطبيعتها يمارس فيها الشعب حقوقه .

وأخيراً هو الموقف الذي يحقق الاستقلال الوطني ، والعدالة الاجتماعية الآن دون انتظار لظهور المخلص في المستقبل ، إذ يستطيع الشعب بعد تجنيد قواه ، وبقيادة طلائعه الآن دون انتظار لظهور المخلص في المستقبل ، أن يأخذ حقوقه من الغاصبين ، سواء من الخارج أو في الداخل . فالثورة ممكنة في الحاضر والجماهير هي صانعتها ، ولها الحق في مراجعة القادة ومحاكمتهم وعزلهم ، فهم مخطئون ولا عصمة لأحد . وهذا هو موقف اليسار .

وقد يستغل اليمين موقف اليسار من أجل تقليب الطبقات بعضها ضد البعض الآخر ، وضرب طبقات الشعب بعضها بالبعض حتى تتم لها السيطرة على الجميع ، ولكن اليسار بأسلوبه في إقامة الوحدة الوطنية يمكنه الوقوف أمام انتهازات اليمين . كما يمكن لليسار إعادة تفسير موقف اليمين خاصة إذا كان الشعب متطلعاً إلى شخصية زعامية ميدانية تتقي فيها الجماهير ، ولكن درءاً للأخطار يمكن تأسيس القواعد الشعبية للمراجعة والتأكيد على الأسلوب الديمقراطي في الممارسة .

١١ ـ وبعد العمل الجماعي يأتي العمل التاريخي أي أنّ العمل الجماعي عندما يتراكم يمر الزمان ، ويعبر عن وجود الجماعة في التاريخ . وهنا يبدو أيضاً موقفان .. الأول موقف

اليمين الذي يقف عند حد العمل الجماعي دون تناول موضوع الأمة في التاريخ ، وبالتالي يسقط التاريخ من حسابه . ولذلك تعمل النظم اليمينية الرجعية على طمس معالم التاريخ ، وعلى إبعاد الشعب عن مساره ، وإلى اتهام كل الحركات الوطنية في التاريخ بأنها قلاقل ومشاغبات ، واضطرابات في الأمن العام ، وخروج على النظام . وإذا تناوله البعض فإنه يحكم على التاريخ بأنه يسير في خط منهار نحو المستقبل ، وأن التاريخ موجود في الماضي " خير القرون قرني ... " وكلما تقدم التاريخ انهار التاريخ حتى نصل إلى عصرنا الحاضر ، يكون تقدم التاريخ قد أصبح انهياراً تاماً ، وسقوطا شاملا " جاء الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ .. " فالتقدم الحقيقي هو رجوع إلى الوراء ، واللحاق بالعصر الذهبي الذي ولى وفات ، عصر النبوة والصحابة والخلفاء ، ولذلك تثني النظم اليمينية الرجعية على عصــور الأباطرة العظام ، والملكيات الغابرة ، حين شيدت القصور ، وأقيمت المتاحف الفنية ، وشقت الطرق والقنوات ، وازدهرت الفنون والآداب .

وهو الموقف الذي لا تهمه وحدة الأمة بقدر ما يهمه الاعلان عن الفرقة الناجية وتدمير الفرق الضّالة ، والناجية واحدة ، والضالة مجموع الأمة ! والناجية هو الوريث الشرعي للخلافة التي بدورها الوريث الشرعي للنبوة ، وبالتالي يتهم كل من يخرج على الصراط بالكفر والفسوق أو العصيان . فإذا انتقلنا إلى السياسة نجد أن هذا الموقف يجعل تاريخ الأمة تاريخا واحدا ، تاريخ الملكية أو تاريخ الأسر الحاكمة ، وليس تاريخ الشعوب الضالة الممزقة الفقيرة الجاهلة ، وحيث سيتحدد الولاء بالطاعة للأمراء أو النبلاء أو للملوك أو للأباطرة .

وفي مقابل ذلك، هناك موقف آخر ، هو موقف اليسار الذي يجعل التاريخ جزءاً لا يتجزأ من كيان الفرد والجماعة . وبذلك كان اليسار نظرة تاريخية للسياسة أو تحليلا تاريخيا للاجتماع أو جدلا تاريخيا للصراع . وكلما وعى الشعب في أي مرحلة من التاريخ هو يعيش ازداد التحامه بالثورة ، وازداد حماسه لها . وقد تكون من مآسينا الحالية أننا لا نعرف في أي مرحلة من التاريخ نحن نعيش ، لذلك تعثرت ثوراتنا .

والتاريخ لا يسير إلى الوراء بل هو حركة تقدم نحو المستقبل ، فالمستقبل يحتوي على

امكانيات ازدهار أكبر مما احتوى الماضي ، وكل جيل يدفع التقدم خطوة إلى الأمام حتى ولو كانت في ظاهرها نكوصا وتراجعا ، فمرحلة النكوص تتلوها مرحلة مضاعفة للتقدم ، لذلك تجد مراحل الثورات عشرات المراحل قبلها بدا فيها المجتمع ساكنا واقفا جامدا . يمكن اعتبار الأبطال في التاريخ القومي والاستشهاد بقصص البطولة حوافز وبواعث لتحريك الشعوب وليس مقياسا للتقدم يتم بالرجوع إلى الوراء . لقد أصبح التقدم وصفا لمعظم النظم اليسارية ، وعنوانا للحركات الثورية ، وشعارا للأحزاب المناضلة .

وهو الموقف الذي لا يعتبر هناك وراثة شرعية لفرقة على حساب الفرق الأخرى ، أو لحزب على حساب الأحزاب الأخرى ، أو لأسرة أو لقبيلة ، على حساب باقي الأسر والقبائل . فالأمة كلها وحدة واحدة تفرز مناضليها أيا كانوا ، وتجمع فرقها واتجاهاتها كلها وحدة وطنية في صورة تجمع أو جبهة ، فلا يكفر فريق فريقا ، ولا يتهم حزب حزبا آخر بالفسوق أو العصيان ، ويكون محك التجمع هو الرصيد الوطني لكل حزب ، وليس مجرد الشعار أو الأصول النظرية التي قام عليها .

١٢ ـ هل تنتهي إلى هذا الحد موضوعات علم أصول الدين كما ورثناها من القدماء ، ولا نزيد عليها شيئا أم أنه بالامكان زيادة جديدة مستقاة من أحوال العصر ؟ وهنا أيضا موقفان : الأول يرينا الاقتصار على ما قاله القدماء والاكتفاء به ، فقد أوفوا كل شيء، ولم يتركوا صغيرة أو كبيرة إلا وتناولوها ، ولم يتركوا لنا إلا الشروح والمنحصات أو حصر العقائد وتقنينها في خمسين وهو الموقف أيضا الذي يجعل علم العقائد قائما بذاته مستقلا لا شأن له بأحوال الناس وبظروف العصر . فالله موجود ، ليس له مضمون اجتماعي ، بل مجرد حكم صوري خالص على وجود الله ، وهذا موقف اليمين ، فإذا انتقلنا إلى النظم السياسية وجدنا أيضا أن النظم اليمينية ترى أن الوضع القائم هو أفضل الأوضاع ، وأنه ليس في الامكان أبدع مما كان ، وأن النظام قد وصل إلى حد الكمال لا تجوز عليه زيادة أو نقصان ، تختص العقائد بالحياة الدينية ، والنظام الرأسمالي بالأمور الدينية ، ويعيش الانسان حياتين ، حياة في مصنعه أو متجره أو شركته يعمل ما يشاء طبقا للنظام الرأسمالي ، وحياة دينية في معبده يقيم الصلاة في أوقاتها ويمارس الشعائر .

وفي مقابل ذلك ، هناك موقف آخر يجعل علم أصول الدين متطوراً . فالعقائد ليست أحكاما صورية بل ذات مضمون اجتماعي من وحي العصر ، فالله الآن مرتبط بالأرض إذا أردنا تحريرها ، فالله قيمة ، والأرض مطلب ، ومن ثم يعاد تفسير القيم طبقا للمطالب والله مرتبط بالثورة ، فالله باعث ، والثورة ضرورة ، ومن ثم يعاد توجيه الباحث لتحقيق هذه الضرورة . والله غاية ، والتنمية هدف ، ومن ثم يعاد تفسير الغاية بحيث تخدم هدف التنمية وهكذا . وهذا هو موقف اليسار . وقد حاول تأسيسه مصلحونا الاجتماعيون وعلى رأسهم الافغاني ، واقبال ، والكواكبي ، والسنوسي ، والمهدي ، ومحمد بن عبد الوهاب ، وغيرهم من ممثلي حركات الاصلاح الحديثة ، فقد حاول الأفغاني ربط الله بالأرض من أجل اجلاء المستعمرين عن أراضي المسلمين ، ومن أجل تحرير الفلاحين من ربقة الاقطاع "عجبت لك أيها الفلاح ، تشق الأرض بفأسك ، ولا تشق قلب ظالمك ؟" . وقد حاول المهدي أيضا ربط الدين بالثورة من أجل الدفاع عن البلاد ضد غزوات المستعمرين ، كما حاول السنوسي أيضا ربط الدين بالمقاومة من أجل طرد الغزاة الأجانب ، كما حاول محمد بن عبد الوهاب توجيه العقائد إلى الاصلاح الاجتماعي ، ومحاربة مفاسد العصر من شفاعة ووساطة ، وشعوذة وكهانة . كما حاول الكواكبي ربط الدين بالالتزام ، ومحاربة اللامبالاة والفتور الذي وقع فيه المسلمون ، كما حاول الربط بين الدين والتحرر من أجل القضاء على مظاهر الاستعباد في حياتنا المعاصرة . وحاول قاسم أمين الربط بين الدين ومساواة الرجل بالمرأة من أجل استرداد المرأة لحقوقها التي تخلت عنها في عصور الجهل والانهيار ، كما حاول إقبال الربط بين الله والذاتية من أجل إعادة تكوين الفرد المسلم ضد التقاليد ، وإبراز جوانب الأصالة والإبداع في مواجهة الغرب بماديته وانحلاله - ومن ثم يمكن إضافة مادة جديدة لتعلم أصول الدين تشمل لاهوت الأرض ، ولا هوت الثورة ، ولا هوت التقدم ، ولا هوت التنمية ولا هوت التغير الاجتماعي ، ولا هوت التحرر ، ولا هوت المقاومة .. الخ وباختصار لا هوت السياسة فتلك مشاكل العصر التي تكون المادة الجديدة لعلم أصول الدين ، وبالتالي تمحي التفرقة التقليدية بين العقيدة والشريعة أو بين أصول الدين وأصول الفقه .

إن مهمتنا الآن هي تطوير فكرنا الاصلاحي الحديث ، ودفعه خطوة نحو الأمام ،

فاختيار مصر بظروفها الحالية وفي مرحلتها الراهنة هو اختيار اليسار ، ومن ثم كان اختيارها الفكري هو اليسار الديني الذي بدأ في حركات الاصلاح على مستوى ثقافتها والتزامها بقضايا العصر . فما زالت كل القضايا التي آثارها الاصلاح الديني لم تؤت أكلها بعد ، فإذا طورنا حركات الاصلاح الديني ودفعناها خطوة إلى الأمام انتقلنا من دور الاصلاح إلى دور النهضة ، شرط الثورة ، وهو ما نرجوه جميعا الآن .

وفي النهاية لا أريد أن أعطي مفتاحا وأقول أن اليمين واليسار في الفكر قد مثلته الاشاعرة والمعتزلة في تراثنا القديم ، فالاشاعرة هم اليمين في الفكر الديني ، والمعتزلة هم اليسار في الفكر الديني وبالتالي تكون مأساتنا أننا بتكويننا الأشعري يمين ، في حين أننا بوضعنا الاجتماعي وبدخلنا المحدود وبأرضنا الزراعية يسار . وبالتالي يكون اختيارنا الفكري غير واقعنا المادي وهنا تظهر ضرورة اعادة الاختيار الفكري حتى يتفق الفكر مع الواقع . ولكنني أترك ذلك لاستنباط القراء وحسن بصيرتهم ، لو شاؤوا فعلوا ، فتلك هي مسؤوليتهم وحدهم .

إنه لمن أشد الأمور عجبا أن تُثار باستمرار قضية " الماركسية والدين " ويوميا .. في جميع أجهزة الاعلام .. وكأن الماركسية هي الخطر الدائم على ديننا ودنيانا دون أن نعلم بأن هذه المعركة المفتعلة المثارة هي في الحقيقة أثر من آثار الاستعمار الثقافي في البلاد .. هذا الاستعمار الذي أراد ـ حفاظا على مصالحه الاقتصادية والعسكرية في المنطقة ، ووقوفنا في وجه حركات التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي ، وتشويها لمواقف كل من يساندونها من قوى الحرية والسلام ـ الترويج بأن الماركسية مضادة لتعاليم الدين ومفسدة لحال الدنيا وضياع في الآخرة ، وينصب نفسه مدافعا عن الدين والدنيا معا . والحقيقة ليس القصد هو حماية الدين فالغرب ما زال يعيش صليبيته ولكن بصور جديدة ، متعددة الأشكال ، يدافع عن الاسلام والمسلمين ، والقصد من ذلك معاداة الحركات الوطنية والقوى التقدمية والنظم الاشتراكية حتى يخلو للاستعمار الجو ، ويظل في نهبه للثروات وفي ايقاع البلاد في شباك الأحلاف وهو ما كانت النظم الرأسمالية تفعله في الغرب منذ القرن الماضي ـ وما زالت تروج له الكنيسة الغربية حتى اليوم دون جدوى أمام تقدم الأحزاب الاشتراكية ، واتساع

قواعد الأحزاب الشيوعية ، وازدياد شعبيتها بين الجماهير . وما لم تنجح النظم الرأسمالية فيه في الغرب ، تعيد به الكرة الآن في البلاد النامية ، مستغلة عدم وضوح فكرها ، وعدم تبلور ايديولوجياتها وتدينها وايمانها ، ومرورها بفترة من التخلف الحضاري .. وتبعية مثقفيها للغرب وتقليدهم له .

وإنه لمن أشد الامور غرابة إلا تثار قضية " الرأسمالية والدين " وهي الأخطر بالنسبة لمجتمعنا الحالي . فإذا كنا نعني بجدية ما نقوله باستمرار .. وما سطرناه في مواثيق الثورة عشرات المرات .. وما وقعنا عليه وأجزناه على مدى ربع قرن أعني " حتمية الحل الاشتراكي " .. تكون " الرأسمالية " حينئذ هي الخطر الداهم على حياتنا ، ولذا كان واقعنا في مصر بدخله المحدود .. وكثافته السكانية يفرض الطريق الاشتراكي للتنمية .. تكون الرأسمالية هي العدو الأكبر للتنمية والمعوق الأساسي لها ، إن عدم إثارة القضية " الرأسمالية والدين " تدل على أننا لا نرى غضاضة في أن نكون رأسماليين أو متدينين على الطريقة الرأسمالية .. وأن الرأسمالية والدين متفقان فيما بينهما في الأهداف والوسائل . ففي الاسلام الأول كان الأغنياء يجهزون جيوش المسلمين بأموالهم .. وكان منهم كبار الصحابة والمبشرون بالجنة . فلا مانع أن يقوم أغنياء المسلمين اليوم بما قام بهم أغنياؤهم بالأمس حتى يبارك الله لهم في الرزق .. ويضاعف الأجر والثروات . وإذا كانت الرأسمالية تقوم أساسا على نشاط الفرد وحريته المطلقة فالدين أيضا لا ينكر على الفرد حريته ونشاطه . والحقيقة أننا على هذا نكون رأسماليين ونظن أننا متدينون .. رأسماليون في الحقيقة .. ومتدينون في المظهر .. وكثيرا ما ندافع عن الرأسمالية ونظن أننا ندافع عن الدين .. ونحن في الحقيقة ندافع عن الرأسمالية .

وهدفنا هنا توضيح هذا الخلط الشعوري أو اللاشعوري بين الرأسمالية والدين في وجداننا القومي حتى يمكننا تخليص الدين مما علق به من آثار الاستعمار أعني التصورات الرأسمالية للعالم ، وأن نفسر الدين تفسيرا يفرضه واقعنا الحالي ، فيكون ديننا هو الصورة أو القالب وواقعنا هو المضمون . وهذا واجبنا وواجب فقهاء المسلمين الذين أنيط بهم الاجتهاد في الدين ، وتطبيق أحكام شريعته بدل أن نكون جميعا ضحية الاستعمار الثقافي

في البلاد ، ونؤمن بالطاغوت ونظن أننا نؤمن بالله .

ومهمتنا هي تصحيح أوضاعنا الثقافية ، والكشف عن المعارك الحقيقية التي يفرضها واقعنا وتتحقق بها مصالحنا واستبدالها بالمعارك الوهمية التي نشرها الاستعمار بيننا إبعاداً لنا عن واقعنا وعن رؤية مواطن مصلحتنا الحقيقية ايهاما منه وخداعاً . مهمتنا هي الوقوف أمام الأخطار الفعلية دون المتوهمة وتوضيح موقفنا الحضاري . وكثيراً ما يخطىء الغرب في حساباته ، ويظن أن الاستعمار الثقافي باق إلى الأبد ، وأن الجماهير في البلاد النامية ستظل راسخة في تخلفها الحضاري ، وأن مثقفيها سيظلون إلى الأبد ممثلين للثقافة الغربية في أوطانهم يعملون لصالح الأجنبي ، ويستغلهم الأجنبي للدفاع عن مصالحه ، وإعادة حكم البلاد بطريق غير مباشر عن طريق وكلائه في البلاد . ولكن احساسا منا بمسؤولية المثقفين وهم طلائع الجماهير الشعبية ، فقد آن الأوان لتوضيح هذا الالتباس في ثقافتنا الوطنية ونحن بصدد إقامة النهضة الحالية من أجل ترسيخ قواعد الثورة وأسسها النفسية والفكرية والقضاء على جميع معوقات التنمية والتغير الاجتماعي .

١ ـ تحرص النظم الرأسمالية على أن تجعل الله خارج الطبيعة ، فيما وراء العالم ، خارج الزمان والمكان ، يستحيل تصوره أو ادراكه ، ولا يمكن رؤيته أو التفكير فيه ولكن يمكن الابتهال إليه ومناجاته ، وطلب العون منه عند الحاجة . وبالتالي يتوجه شعور الجماهير إلى خارج العالم ، مبتعداً عن هذا العالم ، تاركا إياه في قبضة صاحب رأس المال بعد أن خلا له الجو من المنافسة ، وسيطر عليه واحتكره . وكلما اتجه شعور الجماهير خارج العالم ازداد إحكام سيطرة صاحب رأس المال عليه . وفي ذلك يقول فلاح سوداني : كنت سعيداً في أرضي أزرع حقلي ، وأرى ماشيتي ، وفي يوم ما ، أتاني انسان متشح بالسواد وفي يده كتاب ، وبعد مدة رحل ، فوجدت الكتاب في يدي والأرض في يده !

فإذا تأزمت أحوال الناس ، واشتد الكرب ، وعم الفقر ، ابتهل الناس إلى الله ، ودعوه لقضاء الحاجة فيفرح صاحب رأس المال ، ويتصدق ، ويفرّج الهم والكرب ، ويقضي حوائج الناس ، كالخليفة يقذف بأكياس النقود يمينا ويسارا وهو في موكبه على رافعي الأيادي إلى السماء ، فالله هو الواهب والعاطي ، الرازق والمنعم ، وبالتالي يتعود شعور

الناس على السؤال ، وينتظرون العطاء . وهذا ما تريده النظم الرأسمالية من بناء نفس للجماهير ونحن عندما ندعو الغنيّ ، ونسأل المعطي ، ونبتهل إلى الوهاب إنما نكون أسرى التصورات الرأسمالية للدين ، في حين أننا أصحاب حق ولسنا أصحاب سؤال ، وأن لنا حقا في رأس المال نطالب به دون استجداء ، وأن لنا حقا في الأرض ولسنا طلاب هبات أو معونات .

وأحياناً نتصور الله والعالم معا في تصور هرمي ، كلما صعدنا إلى أعلى وصلنا إلى كمال أكثر ونقص أقل ، وكلما نزلنا إلى أسفل وصلنا إلى كمال أقل ونقص أكثر ، وفي القمة يوجد الكمال المطلق الذي ليس به نقص ، وفي القاعدة يوجد النقص المطلق الذي ليس به كمال . وهكذا تتفاوت الدرجات والمراتب بين الأعلى والأدنى أو بين الكمال والنقص . والحقيقة أن هذا التصور ليس من الدين في شيء بل هو التصور الرأسمالي للعالم الذي يعبر عن البناء الطبقي للمجتمع ، والذي يرسخه النظام الرأسمالي في نفوس الناس والذي يعتمد على الحركة الاجتماعية الصاعدة والهابطة فكلما صعدنا إلى أعلى ازدادت الاقلية غنى وقلت فقرا ، وكلما هبطنا إلى أسفل ازدادت الكثرة فقرا وقلت غنى . فالصلة بين الواحد والكثير هي صلة الأقلية بالأغلبية ، والصلة بين الله والعالم على هذا النحو هي في حقيقة الأمر الصلة بين صاحب رأس المال والعمال .

وأحياناً أخرى نتصور الصلة بين الله والعالم تصوراً ثنائياً يقسم الكون إلى قسمين أول وآخر ، صوري ومادي ، أبدي وزماني ، باق وفان ، خالق ومخلوق ، علة ومعلول ، ونظن أن ذلك التصور هو ما يفرضه الدين وهو في الحقيقة ليس من الدين في شيء بل هو وليد النظام الرأسمالي ، أو هو صورة النظام الرأسمالي على المستوى النفسي والذهني لأن ذلك من شأنه أن يجعل العالم سالبا ، لا قوام له بذاته حتى لا تعيه الجماهير ولا تشعر بقيمته ، ولا تهتم به ، وحتى يستطيع صاحب رأس المال الاستحواز عليه ، والسيطرة على مقدراته ، واستغـلال ثرواته ، واحتكار أسواقه . فإذا كان المتدين قد أوعز إليه بايثار الآخرة على الدنيا ، والروح على البدن ، والخالق على المخلوق ، فان ذلك يحدث حتى يمكن للرأسمالي أن يعيش حرا طليقا في الدنيا ، يعمل في العالم كيفما يشاء ، بل يقوّي الرأسمالي الوازع

الديني على هذا النحو الرأسمالي عند الجماهير فيكثر لها البرامج الدينية ، وينشر المدائح النبوية حتى تجد الجماهير ما يلهيها عن الدنيا ثم لا مانع أن يشارك صاحب رأس المال في هذه الشعائر الدينية مرة كل أسبوع في المناسبات والأعياد حتى يلبس لباس التقوى ، وهو في الحقيقة يتستر وراءها ويخفي حقيقة أمره ، وهو الاستحواز على العالم والسيطرة على ثرواته ، واستغلال القوى البشرية لصالحه .

٢ ـ وكثيراً ما نظن أن التديّن هو العكوف على الغيبيات وعالم الأسرار ، والمعجزات والكراسات ، ونهز رؤوسنا اعجابا وطربا ، وشوقا وعجبا ، والحقيقة أن هذا ليس من الدين في شيء بل ما تصوره الرأسمالية لنا على أنه دين ، مقالات منها في التدين من أجل التستر على ما يدور في نظامها من استغلال واحتكار ، وتصريفاً لطاقات العامة ونشاطها فيما لا يقوض دعائم النظام بل العكس فهو يدعمه ، ويقوي أركانه بالتفات الناس إلى ما هو أبقى وأروع ، وطلبها السعادة في معرفة الله والاتحاد به ، وفي الانفصال عن العالم وأسقاطه من الحساب ، ولذلك تكثر النظم الرأسمالية من بناء المساجد ، وإقامة الشعائر ، وتدعيم الطرق الصوفية ، والاحتفال بالموالد ، والتأليف في الغيبيات ، وإدارة النقاش والمناظرة حولها . يجسد النظام الرأسمالي الغيبيات في مظاهر حسية حتى يكون للدين مضمون من داخله وليس مضمون اجتماعي من واقع الناس .

وكل ذلك ليس من الدين في الشيء ، ففي الاسلام لا يعلم الغيب إلا الله ، أما الانسان فلا يتعامل إلا مع عالم الشهادة ، وكانت الشريعة الاسلامية كلها قائمة على عالم الشهادة ، بـل كانت العقائد الاسلامية كلها تجد دليلها في عالم الشهادة . فايماننا بالغيبيات ، وحـديثنا عنها ، وتصويرنا أيـاها ، وخلافنا حولها وتكفيرنا من ينكرها أو يؤولها ، كل ذلك إيمان على الطريقة الرأسمالية ، حيث تكون ضحية الافزاز الرأسمالي للدين ، حيث نؤمن بالرأسمالية في الدين ونظن أننا نؤمن بالدين ذاته .

ولما كان عالم الغيب والاسرار لا يمكن ادراكه بالفعل بل القلب ، تحول الدين إلى ايمان صوفي تصبح فيه الاشراقيات موضوعا ومنهجاً ، ومن ثم تكثر الطرق الصوفية ، ونظن أن التدين هو التصوف ، وكلما أوغلنا في الدين أوغلنا في التصوف ، بكل قيمه السلبية ،

ومواجيده وأذواقه ، وخداعه وإيهاماته .

وأصبح من العجيب أن يقوم النظام الرأسمالي على الترشيد في الاقتصاد وعلى التصوف في الدين ، وكأنّ الايمان على الطريقة الرأسمالية يجعل العقل وسيلة لتدبير أمور الدنيا فحسب ، بالحساب ، والكم والقياس ، والقوانين ، أما شؤون الآخرة ، وأمور الدين فلها الوجدانيات ، والعاطفيات ، والأذواق ، والمواجد وبالتالي يتحقق كمال الانسان وأشباعه لرغبات العقل ومقتضيات القلب فينهب صاحب رأس المال ثروات الأمم ويبتهل ، ويتصوف ، ويتعبد !

وكل هذا ليس من الدين في شيء ، فالدين لا يعتني إلا بهذا العالم الذي يسير وفقا لقانون يدركه الانسان بالعقل حتى يمكنه السيطرة عليه واخضاعه لسلطانه للاستفادة منه في معاشه . والعقل يَشْمل الحس والتجربة الداخلية والخارجية معا ويقوم الانسان بتنظيم العمل في العالم بكل قواه لا فصل في ذلك بين عقل وقلب فالتصوف ، هو التصوف في العمل ، وفي النشاط ، وفي الانتاج ، وليس التصوف الفارغ الذي لا مضمون له .

٣ ـ يظن الناس أن الممارسة الدينية هي اقامة الشعائر ، وأن المسلم هو من أقام قواعد الاسلام الخمس ، الشهادتة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج . فالشهادة نقولها ، والصلاة نقيمها ، والزكاة ندفعها ، والصوم نحرص عليه ، والحج نتسابق إليه . الشهادة لا تكلفنا إلا عبارتين ، والصلاة لا تأخذ من يومنا أكثر من نصف ساعة من أربع وعشرين ، والزكاة لا تأخذ من أموالنا إلا ربع العشر من فائض الأموال ، ومن له ذلك الآن ! وزكاة القطر شيء لا يذكر بجانب نفقات اقطار رمضان وكمالياته المحلية والمستوردة ، والحج نربح منه أكثر مما نخسر ، نربح الدعاية والاعلان ، ولباس التقوى للشّهرة أو للتجارة ، أو نكتفي بالعمرة السياحية أو التجارية التي نحمل فيها ما خف حمله وغلا ثمنه . ولا مانع من كتابة الشهادتين في ملصقات مذهبة أو في لوحات مبروزة ، ونعلقها في دورنا ومكاتبنا أو نشيد المساجد ونضيء مآذنها ، ونضع فيها مكبرات الصوت ، ونتألم من فوضى جمع الزكاة ، ونطالب بإقامة مؤسسات متخصصة يديرها أهل البر والتقوى ورجال الدين والحكومة لجمعها وصرفها ، ونحمل هم شهر الصيام صيفا أو شتاء ، عملا أو راحة ،

نفقات وتكاليف ، ونبتهل إلى الله أن تصيبنا القرعة في الحج ، وأن ييسر لنا سبل الحصول على العملة الصعبة من السوق السوداء . هذا الخلط بين الدين والتجارة ، بين هموم الدنيا وهموم الآخرة هو الذي يكشف عن تسرب الفِكْر الرأسمالي ونظمه في ايماننا وفي ممارستنا الشعائر . وفي أحسن الأحوال تقام الشعائر في تقوى وصلاح دون اعلان أو متاجرة . وفي هذه الحالة يحفظ المسلم نفسه من شرور الدنيا ويتقي متاعبها ، ويعكف على العبادة ، ويكون أقرب إلى الصوفي الذي يقاسم الرأسمالي الكون ، للأول الآخرة والثاني الدنيا ، فيطمئن الرأسمالي على أرضه ويضمن أن لا منافس له فيها .

وفي كلتا الحالتين ، نكون ضحية ، ضحية التفسير الرأسمالي للدين الذي تروّج له النظم الرأسمالية والممارسة الرأسمالية للدين ، فنظن أننا نعبد الله ونطيعه ونحن في الحقيقة نعبد رأس المال ونطيعه عن وعي أو عن غفلة . فالاسلام كما هو معروف ليس عبادات بل معاملات بل إنّ المعاملات ذاتها أعلى درجة في العبادات . هذا هو الطريق الأصعب ، والممارسة الشاقة ، فكل عمل عبادة ، الفلاح في أرضه ، والعامل في مصنعه ، والتاجر في متجره ، والطالب في معهده ، والجندي في ميدانه . ليست العبادة ماذا يفعل الانسان في نصف ساعة يوميا خمس مرات بل ماذا يفعل الانسان في يومه على مدى أربع وعشرين ساعة . ليست العبادة ماذا يفعل الانسان داخل دور العبادة ، ولكن ماذا يفعل الانسان خارجها ، في منزله وفي الطريق العام . ولن يكون الحساب عن إقامة الشعائر بل عن العقل فيمَ فكر ؟ وعن المال فيمَ انفق ؟ وعن الجهد فيمَ بذل ؟ وعن الوقت فيمَ ضاع ؟ العلم عبادة ، والعمل عبادة والنكاح عبادة ، وتحرير الأرض عبادة ، والقضاء على التخلف عبادة ، ومحاربة الاستعمار عبادة ، والقضاء على الاستغلال والاحتكار عبادة ، والدفاع عن حقوق المستضعفين في أي مكان عبادة . إن كل من يريد قصر العبادة وحصرها في إقامة الشعائر فهو ضحية للاستعمار الثقافي في البلاد ولتصوُّرِ الرأسمالي للدين .

إن الشهادة تعني رفض كل آلهة العصر المزيفة ، فنقول " لا إله " أي أننا نرفض من تصورنا أنها آلهة مثل الجاه ، والقوة والسلطان ، والريح .. الخ . فإذا تخلصنا منها ظهر لنا الإلـــه الحق فنقول " إلاّ الله " ، وهو المبدأ ـ الواحد الشامل الذي تتساوى أمامه جميع

الجباه . فالشهادة ليست قولا بل عملا وتضحية ، ومعارضة وثورة ، ومقاومة واستشهادا ، فآلهة العصر ما أكثرها ، ومناضلوها ما اقلهم . إن الصلاة لا تعني الشعائر بل تعني / جهد الانسان الدائم ، وعمله المستمر من أجل تحقيق هذا المبدأ الواحد الشامل وما يتضمنه من نظم اجتماعية تجد الناس فيها صلاحها . ولا تعني الزكاة أرضاء لنزعة الانسان وضمان الكسب له ما دام قد دفع ما طلب منه ، ففي المال حق غير الزكاة . لا تعني الزكاة تبرئة للذمة من حقوق الغير بل تعني بداية تأكيد حق الغير حتى يتساوى الانسان مع الآخرين فيما بين يديه . ولا يعني الصوم الشق على الأنفس ثم ارضاءها بعد ذلك بل تعني مشاركة الناس فيما بين يدي الانسان ، وإن المجتمع الاسلامي لا فقر فيه ولا رجوع . ولا يعني الحج رحلة سياحية أو تجارية أو دعائية أو تبرئة للذنوب بل يعني مؤتمرا عاما للمسلمين جميعا للاجتهاد في المسائل العامة التي بها صلاح الناس وعموم البلوى ، وكلنا نعلم ذلك ونوافق عليه ولكن ممارسة الدين على الطريقة الرأسمالية هي الغالب تقليداً وسهولة ، ارضاء للضمير بأيسر السبل وأرخصها .

٤ ـ وما زلنا نكرر خطأ شائعاً روجه فيما بيننا الاستعمار الثقافي ، وصدره الينا الغرب بعد أن فشل في استعماله أَلاَ وهو الصراع بين الروحانية والمادية ، فكل من يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر يكون روحانيا وكل من يؤمن بالمجتمع وبالتغير الاجتماعي وبالتحليل الاحصائي وبالعوامل الاقتصادية يكون ماديا ، فندافع عن روحانية نظرية وهي الروحانية التي تروج لها النظم الرأسمالية ، إذ تريدها نظرية حتى يمكنها السيطرة على النواحي العملية ، وتريدها مجردة حتى يمكنها أن تتعامل مع المحسوس وأن تستحوذ عليه ، وتريدها فارغة بلا مضمون حتى تحتكر هي المضمون وتبتلعه في بطونها . والحقيقة أن كل من يؤمن بالروحانية على هذا النحو الفارغ ، الخالي من أي مضمون يكون ضحية الفكر الرأسمالي والاستعمار الثقافي .

وفي حقيقة الأمر هذه الروحانية العرجاء هي المادية بعينها لأنها تجعل العالم المادي لا روحانية فيه ، ومن ثم تنشط النظم الرأسمالية في هذا العالم ، وتفعل ما تريد ، تستغل وتحتكر ، وتسيطر وتتلاعب ، فإذا تم لها ما تريد ذهبت إلى الروحانية الفارغة ووفتها حقها

بالكلمات والشعارات أو الممارسة الشعائرية والطقوس ، فتطمئن النفس وتبرأ ثم تعود من جديد إلى العالم تفعل فيه ما تشاء بلا قانون أو حدود .

هـذه الروحـانية المميتة القاتلـة للـروح هي التي حذر منها الاسلام مراراً بقوله : "ليس البـر أن تولـوا وجـوهكم قبـل المشرق والمغـرب .. " وهي التي نبه إليها الرسـول في التطبيـق ونوه بها الصحابـة في الممارسـة ، فالذي يعمـل بيديه ويطعم أخـاه العابـد في المسجد يكـون أخـوه أعبد منه ، واليد السوداء المتشققة من العمل الغليـظ يد يحبها اللـه ورسولـه ، والقـدم التي تسعى في سبيل اللـه عـونا للجـار أو دفـاعاً عن الحمى قـدم تشبعت بالروحـانية . فروحـانية الاسلام ذات مضمون ، روحانية الأرض ، والطبيعة والكون . وهنا تمحي التفرقة بين روحانية فارغة ومادية صماء وتكون الروحانية هي المادة المنشطة المتحركة ، والمادة هي الروحانية المتجسمة المتحققة ، فالعالم كله روح وكله مادة لا انفصام بينهما وهذا هو أحد معاني التوحيد ولكننا حتى الآن ما زلنا ضحية الروحانية العوجاء ، ونؤمن بالدين على الطريقة الرأسمالية .

٥ ـ ويظـن الناس أن هـذا العالم قـد خلق لينتفـع به الانسـان " المال والبنون زينـة الحيـاة الدنيا " ومن ثم تتحـول قيم الناس إلى قيم استهلاكيـة خالصة ، ويكـون مطلبهم هـو إقـامة مجتمع الرفـاهية والوفـرة . ومادام الانسان قد آمن بالله ، وكتبه ورسلـه واليوم الآخـر ، وأقـام الشعائـر وأركان الدين فإن من حقـه أن يتمتع بما وهبـه اللـه من رزق ، فيتـزوج أكثـر من مرة ، ويمكن ، ويأكل ، ويشرب ، وينعم بـرزق اللـه ، ويكـون الأخ المسلم أول من يهـرع إلى العوائـد وأول من يقفز إلى الصـلاة ، أول من يجمع المال ، وأول من يدفع الـزكاة . وهذا أيضاً أثـر من آثـار الرأسماليـة في الدين . فالدين يضـع كل شيء في خدمـة القضيـة ألا وهي تحقيق الأمـانة على الأرض ، ويبعث على التعفف ، ويدعـو إلى تجـاوز الحيـاة الدنيا احساسا منـه بالرسالـة . فالقيم الاسـلامية قيم انتاجيـة خالصـة فيها نفـع للناس . وكلها تهـدف إلى تحقيق المصلحـة العامـة ، والأخـلاق

الاسـلامية من عفـة وزهـد وتقشف وتقـوى ، هي في الحقيقـة أخـلاق اجتماعيـة للحـد من نمط الاستهـلاك لأنه في اليـوم الذي يتحـول فيه المجتمع من نمط الانتـاج إلى نمـط الاستهلاك ، ومن مجتمع النضـال إلى مجتمع الرفـاهية ينهـار كما لاحظ ابن خلدون .

إن النّعمة الحقيقية والسعادة الأبدية ليست في التنعم بمباهج الدنيا بل في العمل على تحقيق الرسالة ، وفي أداء الواجب ، وفي أن يترك الانسان وراءه اثرا أو سنة حميد تتناقلها الأجيال وتتبعها بعده لأن "الآخرة خير وابقى" ولا يوجد مال حلال لانسان في مجتمع أغلبيته عارية بلا لباس ، وفي العراء بلا مساوىء وجائعة بلا طعام ، وأمية بلا تعليم ، ومريضة بلا استشفاء ، فكيف ينعم الانسان بالمال الحلال في واقع كل ما فيه ـ حرام !



الفصل الثاني

المال في القرآن

إن طريق التنمية اللارأسمالي في البلاد النامية مرتبط أشد الارتباط بتراثها القديم وبثقافتها الوطنية . ولما كان هذا التراث وهذه الثقافة في جوهرها دينية ، أصبح من الضروري معرفة موقف الدين من التنمية ، وكيف يمكن أن يساهم في تكوين نظام اقتصادي يرعى مصالح الأغلبية . ويزداد أهميةً إذا ما عرفنا كيف يُستغل الدين في البلاد النامية لصالح النظم الرأسمالية بالتركيز على التفاوت في الرزق كمظهر من مظاهر القدر الإلهي ، وعلى الاستثمار القائم على الربح ، وعلى الملكية الخاصة بلا حدود أو شروط ، وعلى النشاط الاقتصادي الحر ما دام صاحب رأس المال يؤدي ـ ضريبة المال أو العقار في صورة الزكاة . فأصبح الدين وسيلة لتدعيم النظام الرأسمالي أمام أعين الجماهير ، ولا تستطيع له دفعاً .

مهمتنا هنا هي تقديم بديل آخر عن تصور الدين لأحد مظاهر النشاط الاقتصادي ألا وهو المال لمعرفة ما إذا كان تصور الدين للمال أقرب إلى التصور الرأسمالي أم الاشتراكي أم أنه تصور خاص يمكنه تطوير المجتمع وتنمية موارده الاقتصادية على نحو لا رأسمالي بالضرورة دون الوقوع في التصورات الاشتراكية الطوباوية أو الدينية أو الخلقية . قد يحتوي الدين على تصور علمي للمال ووضعه في المجتمع وصلته بالنشاط الانساني ، وقد يكون هنا التصور أكثر من أي تصور نظري آخر في أحد النظم الاقتصادية . وعلى هذا النحو ،

لا يهتم هذا التصور بأنه مستورد أو دخيل أو أنه لا ينبع من تراثنا وتربتنا وأخلاقنا وروحنا كما هو معروف في التهمة الشائعة التي تلصق بكل تصور لا رأسمالي للدين .

وسنعتمد على تحليل لفظ " المال " في القرآن دون ما دخول في نظريات الفقهاء في المال خشية الوقوع في قيل وقال ، وخشية ضياع وحـدة التحليل في خِضَمِّ اختلافات الفقهاء ، وحتى لا تأخذ الدراسة طابعا تاريخيا سيكون حتما ناقصا(١) ، سيكون الاعتماد الأساسي على اللغة العربية وعلى بداهة العقل وعلى الاحساس بالعصر والشعور بمتطلباته ، أي أننا سنصنف آيات المال باعتبارها تجارب شعورية جماعية في وجداننا القومي . سأحاول أن أعيد بناء تراثنا الديني القديم ممثلا في مصدره الأساسي وهو القرآن طبقا لحاجات العصر وعلى رأسها التنمية بالطريق اللارأسمالي ، وهو الطريق الذي يفرضه أيضا الدخل القومي المحدود ، وغياب رؤوس أموال كبيرة تكون دعامة للتنمية بالطريق الرأسمالي ، وكأن تراثنا القديم في جوهره ومنشئه يطابق واقعنا ، ويتفق معه في طريق التنمية .

وسأبدأ أولا بتحليل لصورة الآيات أعني أشكالها اللغوية ثم أثني بتحليل المضمون أي معانيها من أجل الانتهاء إلى تصور عام للمال في " القرآن " أي في آخر مرحلة من مراحل الوحي الذي اكتمل فيها وأصبح أيديولوجية .

أولاً : تحليل الصورة

١ ـ ذُكر لفظ "المال" في القرآن في صوره المختلفة ٨٦ مرة أي أنه موضوع مهم تناوله الوحي بالبيان والتفصيل وليس موضـــوعا عارضا ، ويعادل موضوع النبوة (ذكر لفظ "النبي " بصوره المختلفة ٨٠ مرة) كما يعادل موضوع الوحي (ذكر لفظ " الوحي " بصوره المختلفة ٧٨ مرة) . فالحديث عن "المال" في الوحي حديث أصيل وليس اسقاطا من مذاهب معاصرة عليه ، وليس شد الوحي إلى مذاهب مغايرة له ، وليس استعمالا للوحي حتى يقول ما يريده صاحب مذهب أن يقول .

(١) انظر في ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام : كتاب الأموال . تحقيق وتعليق محمد خليل هراس ، مكتبة الكيات الأزهرية ، القاهرة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م

٢ - وقد ذكر لفظ "المال" في القرآن في صورتين مختلفتين : مرة غير مضاف إلى الضمائر (المال ، مالا ، أموال) ٣٢ مرة ومرة أخرى مضاف إلى الضمائر (ماله ، ماليه ، أموالكم ، أموالنا ، أموالهم) ٥٤ مرة ، مما يدل على أن المال قد يكون له وضع مستقل في العالم عن النشاط الانساني ، لا يضاف إلى أحد ، فرداً أو جمعاً ، وقد يدخل في علاقة مع الآخرين ، في صورة نشاط وجهد واستثمار . والمال المستقل عن النشاط ينبيء عن أنه وضع طبيعي ، لا يمتلكه أحد ، بل موضوع في الطبيعة أو واقعه مستقلة . فكل مال لا يمتلك بالضرورة بل هو موجود قبل نشاط الانسان في مقولة الوجود وليس في مقولة الملكية . فكل محاولة لاثبات ملكية المال تغفل وضع المال المستغل غير المضاف إلى الضمائر ، وتجهل وضع المال كظاهرة طبيعية في العالم في صورة ثروات طبيعية في الأرض قبل أن تدخل في أية علاقة مع الانسان ، المال هنا مجرد امكانية للعمل وللنشاط وليس هو فقط واقع دافع على هذا النشاط . ولما كانت الاضافة أكثر شيوعا من عدم الاضافة (٥٤ - ٣٢) كانت علاقة المال بالآخرين هي محور نظرية المال ، أي المال المستغل ، المستثمر ، بعد أن أصبح طرفا في علاقة مع الانسان . المال لا يظل في بطن الطبيعة بل يستغله الانسان ، لذلك لا يمكن اكتناز المال أو تخزينه أو منعه من السيولة والحركة ، فالمال للاستعمال وليس للاكتناز ، المال حركة وليس سكونا ، المال طرف في علاقة مع الانسان من حيث هو نشاط وحركة ، وفعل وجهد ، وطاقة وتولد . فإذا كانت البلاد النامية تعاني من نقص في الاستثمار الداخلي بالرغم من وجود المال في أيدي الطبقات العليا بما يتمتعون به من قوة شرائية ضخمة تسمح لهم باستهلاك الأموال أو بتهريبها أو باستثمارها في عقار غير منتج أو مضاربة أو عمولة أو سمسرة ، فكل ذلك اكتناز للمال دون جهد ونشاط . ومن هنا أتى تحريم الربا ، لأن المال لا يولد المال تلقائيا بل الجهد هو الذي ينص المال ويكثره.

٣ - ويذكر لفظ "المال" غير مضاف في صورتين : مرة نكرة (مالا ، أموالا) ١٧ مرة ، ومرة معرفة (المال ، الأموال) ١٥ مرة مما يشير إلى أن المال معروف وليس مجهولاً ، وأنه معلوم وليس خفياً (هذا بالاضافة إلى المال المعرف بالاضافة إلى الضمائر) . فالمال يدخل في نظام اقتصادي ونعرف مصدره واستثماره وتنميته ومآله . لا يترك المال هباء لا

ندري من أين أتى ؟ وكيف تكاثر ؟ وأين انتهى ؟ بل يدرس ، ويُعيِّن مساره ؟ فالمال له نظرية يقوم عليها وليس مجرد موضوع أو شيء يختفي ويستتر . وقد يكون التعريف بألف ولام التعريف (المال ، الأموال) ٧ مرات وقد يكون بالاضافة (مال الله ، مال اليتيم ، أموال اليتامى ، أموال الناس) ٨ مرات مما يدل على أن التعريف بالمال لا يأتي من كونه موضوعا طبيعيا معروفا في العالم بل يكون تعريفه بنسبته إلى الآخرين ، والآخرون هم الناس أولا (ذكرت "أموال الناس" ٤ مرات) ثم أموال اليتيم واليتامى ثانيا (ذكر مال اليتيم مرتين ، وأموال اليتامى مرة) ثم مال الله ثالثاً (ذكر مال الله مرة واحدة) فالمال للناس أي للجماهير وللعامة وللأغلبية ولأصحاب المصلحة الحقيقية وعلى رأسهم اليتامى والمحتاجون ومن لا عائل لهم وليس للمكتفين الذين تفيض الأموال عن حاجتهم . فالمال لا يكون إلا عند صاحب الحق به والحق يتحدد بالحاجة . والمال هو أيضاً مال الله وليس ملكاً لأحد ، ولم يظهر في القرآن ولو مرة واحدة أن المال هو مال الأغنياء والمترفين !

٤ ـ ويذكر لفظ "المال" غير المضاف في صيغتين : مرة مفردا (المال ، مالا) ١٨ مرة ، ومرة جمعا (الأموال ، أموالاً) ١٤ مرة . فالمال قد يكون مفردا وقد يكون جمعا عندما يتراكم ، ولكن المال في صيغة المفرد أكثر شيوعا من المال في صيغة الجمع ، مما يدل على أن تراكم المال في أموال يكون أقل حدوثا . فإذا حدث فإنه يكون للاستثمار ، وتكون أموال الناس ، فالتراكم لا يكون للفرد ، خاصة وأن كل الحالات التي أضيف فيها المال في صيغة "أموال" كانت لنسبتها إلى الناس في صيغة "أموال الناس" .

٥ ـ ويذكر لفظ "المال" غير مضاف في حالات الاعراب الثلاث ، مرة مرفوعا (مرتين)، ومرة منصوبا (١٧ مرة) ، ومرة مجروراً (١٣ مرة) . فالمال لا يأتي مرفوعاً إلا فيما ندر ، أي أن المال لا يمكن أن يكون فاعلا أو مبتدأ أو خبرا ، لأن المال لا يفعل من تلقاء ذاته بل يفعل من خلال الجهد الانساني ، (تحريم الربا) ولا يكون مبتدأ أو خبرا لأن المال ليس موضوعا ولا محمولا في قضية خبرية بل هو مضوع للنشاط والجهد . وفي المرتين اللذين ذكر فيهما "المال" مرفوعا أخذ معنى سلبيا مثل "المال والبنون ـ زينة الحياة الدنيا " (١٨ : ٤٦) أي يكـون المال لا قيمـة له ، يكون ظاهراً خادعاً ، وعرضاً لا جوهراً أو مثل "يوم لا ينفع

مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم " (٢٦ : ٨٨) فالمال هنا ليس بذي منفعة في المواقف المصيرية حيث يتحدد فيها عمل الانسان ، وحيث يتم فيها تقييم جهده ونشاطه ومسار عمره ، فالمال ليس مقياسا للتقييم بل العمل هـو المقيـاس ، ولا يغني الكم عن الكيف ، ولا الموضوع عن الذات ، ولا الامكانية عن التحقيق .

فإذا أتى لفظ "المال" مجرورا فإنه يكون أكثر شيوعا من وروده مرفوعا (١٣ - ٢) فإن الجر يأتي إما بالاضافة (مثل "ذا مال " أو بالعطف مثل " وأموال وفرتموها " والاضافة والعطف لا يدلان على وضع اللفظ ، فالمضاف إليه يرجع إلى وضع المضاف ، والمعطوف يرجع إلى وضع المعطوف عليه . ولكن الأهم هو ورود اللفظ مجروراً بحروف الجر (١١) مرة مما يدل على أن المال في حركة مستمرة منه وإليه وذلك لأن حروف الجر المستعملة قبل اللفظ هي إما " من" (٥ مرات) ، وإما " ب " ٣ مرات وإما "في" ثلاث مرات ، فالجر بالحرف "من" هو الشائع وهـو يدل على سحب المال وأخـذه واسترجاعه مثـل " ولم يؤت سعه من المال " (٢ : ٤٧) أو "ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال " (٢ : ١٥٥) أو اعطائه للآخرين مثل " وأتوهم من مال الله " (٢٤ : ٣٣) أو أخذه أو سحبه من الآخرين ظلما وعدوانا مثل "لتأكلـون فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون " (٢ : ١٨٨) . والجر بالحرف " ب " يدل على اعطاء المال وعدم استبقائه أو حجزه . وقد يكون هذا العطاء لشراء الذمم والافساد كالرشوة مثل " أتمدوننا بمال " (٢٧ : ٣٦) أو لامتحان الشعور ومعرفـة صلابـة الذات واختبار القدرات من أجل التوعية لها وتقوية نشـاطها مثل " وأمددنـاكم بأمـوال وبنين " (١٧ : ٦) أو "ويمـددكم بأمـوال وبنين " (٧١ : ١٢) . أما الجر بالحرف " في " فإنه يشير إلى أن المال يجمع بين الحركتين معا ، الأخذ والعطاء ، الدفع والجذب ، من وإلى ، وهو ما يسمى بالمشاركة مثل " وشاركهم في الأموال " ، (١٧ : ٦٤) وهي حركة المال الخارجية ، أو التكاثر وهي حركة المال الداخلية أي حركة المال الداخلية سلبي مثل " وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس " وهو التكاثر بلا جهد ونشاط وعمل واجتهاد ومثل " وتكاثر في الأموال " (٥٧ : ٢٠) أي تكاثر الأموال بلا غاية أو هدف بل من أجل التكاثر والاكتناز وليس من أجل التنمية والتطوير .

أمـا إذا أتى المال منصـوبا فهـو أكثـر حالات الاعراب شيوعا من الرفع والنصب (٢ - ١٣ - ١٧) وهو يدل على أن المال موضوع للنشاط وأنه يقع عليه الفعل ،

وأنه طيع في يد الانسان . وقد يأتي أولا بمعنى سلبي ، وضعا لارتباط الشعور بالمال ، وإدانة له مثل " وتحبون المال حباً جماً " (٨٩ : ٢٠) حتى يظل الشعور الانساني مستقلا عن طرفه الآخر وهو المال . فجمع المال ليس هدفا في ذاته دون استثمار " لذي جمع مالا وعدده " (١٠٤ : ٢) وليس صَرْفه هدفا في ذاته فذاك استهلاك بلا انتاج " يقول أهلكت مالا لبدا " (٩٠ : ٦) ، وليست كثرة المال في ذاتها قيمة للانسان ، بل القيمة في نشاطه وعمله " وقال لأوتين مـالا وولـد (١٩ : ٧٧) أو " وجعلت له مالا ممدودا (٧٤ : ١٢) كما أن كثـرة المال أو قلته ليست زيادة في القيمة الذاتيـة للانسان أو نقصانها ، فالكم ليس مقيـاسا للكيف " أنا أكثر منك مالا " (١٨ : ٣٤) أو " أنا أقل منك مالا " (١٨ : ٣٩) أو " وأكثر أموالا (٩ : ٦٩) و " زينة وأموالا " (١٠ : ٨٨) أو " أكثر أموالا وأولادا (٣٤ : ٣٥) . وقد يأتي ثانيا بمعنى عدم الاقتراب من أموال الآخرين وهم المحتاجـون واليتامى والنـاس ، وليس من بينهم الأغنيـاء ، مثل " ولا تقربوا مال اليتيم " (٦ : ٣٤) أو " أن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما " (٤ : ١٠) أو " وأكلهم أموال الناس بالباطل " (٤ : ١٦١) أو " ليأكلون أموال الناس بالباطل " (٩ : ٣٤) فالمال للحاجة ، ومكانه ، الطبيعي عند المحتاج ، وأخذ المال من المحتاج هو قضاء على الحياة ، والمال من أجل المحافظة على الحياة واستمرارها . وقد يأتي ثالثا بمعنى اعطاء المال ، والتخلي عنه ، واعطائه لمن هم أشد حاجة من الانسان مثل " وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين " (٢ : ١٧٧) أو القيام بالأفعال تحقيقا لرسالة وليس انتظارا لأجر مثل " يا قوم لا أسألكم عليه مالا ، لن أجرى إلا على الله " (١١ : ٢٩) . هذه المعاني الثلاث للفظ " للمال " في حالة النصب تثبت أولا استقلال الشعور الانساني عن المال ، ثم تؤكد ثانيا ضرورة محافظة الانسان على هذا الاستقلال وذلك باعطاء المال من هو في حاجة اليه ، ثم تبرز في النهاية ضرورة اعطاء المال لمن هو في أشد حاجة من الانسان ، وايثار الآخر على النفس . فاستغلال الشعور ليس واقعة فقط بل هو واقعة يحافظ عليها بالحركة والنشاط ، وبمقاومة الرغبة في الاستحواذ على ما لدى الآخرين ، وبايثار الآخر على الذات . فالحاجة هي التي تحدد اتجاه المال وحركته بين الناس . فيتجه المال إلى من هو في حاجة إليه .

٦ ـ أما " المال " المضاف إلى الضمير فإنه يذكر مرة مضافاً إلى ضمير المفرد (ماله ، ماليه) ٧ مرات ، ومرة أخرى يذكر مضافا إلى ضمير الجمع في صيغة الجمع (أموالكم ، أموالنا ، أموالهم) ٤٧ مرة أي أن المال لا يدخل في علاقة كثيرة مع الفرد بل أنه علاقة جماعية (٧ ـ ٤٧) فإذا ما دخل في علاقة مع الفرد فإنه يكون مالا مفردا وليس أموالا بالجمع ، فالفرد لا يمكنه أن يجمع المال ، بل إن تراكم الأموال ، يكون من عمل الجماعة .

٧ ـ ويكــون " المال " مضــافا إلى ضمير الفرد المتكلم مرة واحدة (ماليه) أو الغائب (ماله) ست مرات ولكنه لا يكون أبدا مضافا إلى ضمير المخاطب في صيغة " مالك " . وكأن الذي له المال إما أنا المتكلم بنسبة ضئيلة أو هو الغائب بنسبة كثيرة تربو على ستة أضعاف . فالمخاطب لا مال له والمتكلم له مال نسبي أما الغائب فهو الذي له كل المال تقريبا وبالتالي تكون هناك طبقات ثلاث :

١ ـ طبقـة المعدمين ، وهم المخاطب ، الذين لا يملكون شيئا ، وهم الجماعة الحاضرة الموجودة التي تحتاج إلى من يخاطبها والتي هي مهيأة لحياة الوعي والادراك .
٢ ـ طبقـة الفقراء ، وهم المتكلم ، الذين يملكون أقل القليل ، وهي الطليعة الواعية التي بالقدر الذي تملك تكون في تحالف طبيعي مع الطبقة الأدنى ، طبقة المعدمين .
٣ ـ طبقة الأغنياء ، وهم الغائب ، الذين يملكون كل شيء تقريبا ، والذين يكونون طبقـة مناقضة لطبقتي المعدمين والفقراء . فالطبقة المتوسطة إذن أقرب في تحالفها إلى طبقة الفقراء منها إلى طبقة الأغنياء .

فإذا ما أضيف " المال " إلى ضمير المتكلم (ماليه) فإنه يشير إلى استقلال شعور الانسان عن المال ، وأن قلة المال أو كثرته لم تؤثر في وعي الانسان " ما أغنى عني ماليه " (٦٩ : ٢٨)

وإذا ما أضيف إلى ضمير الغائب (ماله) فإنه مرة يكون فاعلا (٣ مرات) ومرة يكون

مفعولا به (٣ مرات) ولكنه لا يكون مجروراً أبداً مما يدل على أن احتفاظ الفرد الغائب بما له بصورة ثابتة لا يؤخذ منه شيء هو أمر غير طبيعي . فالمال لا يسكن بل هو في حركة دائبة منه وإليه طبقا لنشاط الانسان وفعله . وفي حالة كونه فاعلا فإنه يكون قيمة سلبية ولا يكون بديلا عن شعور الانسان واستغلاله ولا عن عمله ونشاطه " مالم يزده ماله وولده إلا خسارا " (٧١ : ٢١) أو " وما يغني عن ماله إذا تردى " (٩٢ : ١١) أو " ما أغنى عنه ماله وما كسب " (١١١ : ٢) . وفي حالة كونه مفعولا به فإنه يشير أيضاً إلى نفس الحقيقة السابقة وهي أن خلود الانسان لا يكون بما جمع من مال به بما عمل بالمال وكيف استثمره " يحسب أن ماله أخلده " (١٠٤ : ٣) فإذا ما تم الانفاق منه رغبة في دفع المال وتحريكه فإن هذا الانفاق يكون في صورة نفاق ورياء ، تسكينا للجماهير أو مزايدة في الدين أو تأجيلا لثورة هذه " كالذي ينفق ماله رئاء الناس " (٢ : ٢٦٤) ، ولكن السبيل إلى الانفاق هو اعطاء حق الآخر من المال في الزكاة " الذي يؤتى ماله يتزكى " (٩٢ : ٢٨) .

٨ ـ أما لفظ "المال" المضاف إلى ضمير الجمع في صيغة الجمع (٤٧ مرة) فإنه يضاف إلى ضمير المتكلم مرتين (أموالنا) ، وإلى ضمير المخاطب ١٤ مرة (أموالكم) وإلى ضمير الغائب ٣١ مرة (أموالهم) مما يدل على أن المتكلمين ليس لديهم أموال وأن المخاطبين يأتون في الدرجة الثانية ولكن الغائبين هم الذين يكتنزون الأموال (٢ - ١٤ - ٣١) . هناك إذن ثلاث طبقات :

١ ـ طبقة الفقراء ، وهم نحن ، المتكلمون ، الذي يملكون مالا تقريبا إلا في أقل القليل ، فالمال لا يوجد في أيدي من يطالبون به ، ومن لا مال لهم هم الذين يتكلمون وطلب المال حق لمن لا مال له . وحتى في هذين الاستعمالين ، مرة يكون المال مرفوعا ليدل على استقلال الشعور عنه "شغلتنا أموالنا " (٤٨ : ١١) ، ومرة يكون مجرورا اعلانا عن المشاركة في الأموال " أن نفعل في أموالنا ما نشاء " (١١ : ٨٧) .

٢ ـ الطبقة المتوسطة ، وهم أنتم ، المخاطبون الذين يملكون بعض الأموال . فالتوجه بالخطاب ـ إلى الحاضرين ضرورة من المتكلمين الذين لا يملكون شيئا ، فالخطاب

الاجتماعي كلام ممن لا مال له إلىماله مال . وفي استعمال هذه الصيغة يأتي مرة اللفظ فاعلا أو مبتدأ (أربع مرات) لاثبات استقلال الشعور عن المال ، وأن المال لا يكون بديلا عن قيمة " الشعور الممثلة في الجهد والنشاط " إنما أموالكم وأولادكم فتنة " (٨ : ٢٨) ، (٦٤ : ١٥) ، كما أن المال ليس سبيلا للرقي والتقدم بالضرورة بل قد يؤدي إلى التخمة والترف " وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى " (٣٤ : ٣٧) وكل مشروع يجعل من كثرة المال وسيلة للرفاهية والترف وبديلا عن الالتزام بمبدأ والدفاع عن قضية يكون مشروعا مفلساً " يا أيها الذين آمنوا ، لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله " (٦٣ : ٩) . ثم يظهر اللفظ مرة أخرى مفعولا به (٥ مرات) مبينا حق الآخر في المال وعدم الاعتداء على أموال المحتاجين ، وعدم أخذها زورا وبهتانا ، سرقة ونصبا واحتيالا بالتلاعب بالأسعار أو باحتكار الأسواق . " ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل " (٢ : ١٨٨) ، (٤ : ٢٩) ، فذلك اكتناز للمال ، وإضافة مال إلى مال ، وتجميع لرؤوس الأموال " ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيراً " (٤ : ٢) . كما تبدو أهمية استثمار المال دون ضياعه ، واستثماره فيما هو منتج وليس فيما هو مستهلك ضائع ، فضياع المال في الاستهلاك سفه ، واستثماره في الانتاج زيادة ونماء ـ " ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما " (٤ : ٥) فقيام المال بالاستثمار وضياع ـ المال بالاستهلاك . فإذا ما حدث الاستثمار بنشاط الانسان وجهده ينمو المال ويكثر ، ويصبح الأجر مطابقا للجهد " وأن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم " (٤٧ : ٣٩) . وأخيراً يظهر اللفظ أيضا مجرورا (٥ مرات) للتأكيد مرة ثانية على ضرورة عدم استغلال رأس المال لجهد الآخرين ، وعلى الكف عن هذا الاستغلال عندما يولد المال المال بلا جهد ، وعلى أرجاع رأس المال للانسان والا صادرته السلطة الشرعية " وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون " (٢ : ٢٧٩) وذلك من أجل إعادة استثمار المال بلا استغلال لجهد الآخرين " أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين " (٤ : ٢٤) . وأفضل استثمار للمال هو بذله في قضية عامة تهم مصالح المسلمين وعلى رأس القضايا جميعا ، الجهاد " وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم " (٩ : ٤١) ، " وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم " (٦١ : ١١) فذلك هو الاختبار الحقيقي لطريقة استعمال الانسان للمال " لتبلون في أموالكم وأنفسكم "

(٣ : ١٨٦)

٣ ـ طبقة الأغنياء ، وهم الغائبون الذين يملكون المال والثروة ، كالملاك الغائبين ، والمهـربين ، وأصحاب رؤوس الأموال ، وهم الطرف المقابل للطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطــة ، وهم الذين يشــار إليهم بإصبــع الاتهـام ، بأنهــم كنــزة الأمــوال . ومن حيث الاستعمال يأتي لفظ " أموالهم " مرفـوعا (٥ مرات) للاشارة إلى أن كنز المال ليس بديلا عن جهـد الانسان ونشاطه وعملـه " لن تغني عنهم أموالهم " (٣ : ١٠) ، (٣ : ١١٦) ، (٥٨ : ١٧) ، وإلى أن كثرة المال لا تدل على قيمة في ذاتها " فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم " (٩ : ٥٥) ، (٩ : ٨٥) . ويأتي اللفظ مرة أخرى منصوبا (١٢ مرة) للاشارة إلى استحالة أخذ أموال اليتامى ، وهم المحتاجون ، وأن من يكتنزون الأمــــوال إنما قـــد كنـــــزوها حتما من أموال المحتاجين " وأتوا اليتامى أموالهم " (٤ : ٢) أو " ولا تأكلــوا أموالهم إلى أموالكم " (٤ : ٢) أو " فادفعوا إليهم أموالهم " (٤ : ٦) أو للحثّ على انفاق المال وعدم اكتنازه ، وضرورة سيولته واستثماره ، فالمال للمحتاج ، والمال للانفاق " مثل الذين ينفقون أموالهم " (٢ : ٢٦١) ، (٢ : ٢٦٥) أو " الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله " (٢ : ٢٦٢) . هذا الانفاق من أجل قضية ، ومن أجــل تحقيق هدف والحصول على نتيجة " إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم " (٩ : ١١١) فإذا حــدث لك أتت أمــــوال الأغنيــــاء إلى من ينفقها في سبيـــل الغاية (" وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم " (٣٣ : ٢٧) . أما الانفاق من أجل التظاهر الاجتماعي أو من أجل المزايدة في الدين وادعاء النقوش ، أو من أجل الحصول على مصلحة أكبر فهو نفاق ورياء " والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس " (٤ : ٣٨) وكذلك الانفاق من أجل هدم المبدأ وإعاقة تطبيقه ومن أجل استغلال الناس واستعبادهم فهو مقاومة للحق واستعمال للمال ضد الأمانة وليس من أجلها " إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . " (٨ : ٣٦) . وأخيراً يأتي اللفظ مجروراً من أجل بيان سيولة المال وحركته وعدم بتوته وسكونه في خزائن أصحاب المال . فالمال للانفاق من أجل القضية " وبما انفقوا من أموالهم " (٤ : ٣٤) ، والمال للجهاد في سبيل الله وليس تكسبا بقضــايا الدين " والمجاهــدون في سبيل الله بأمــوالهم " (٤ : ٩٥) ، " فضــل اللــه

المجاهدين بأموالهم " (٤ : ٩٥) ، " وجاهدوا بأموالهم " (٨ : ٧٢) (٩ : ٨٨) ، (٤٩ : ٢٥) ، " وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم " (٩ : ٢٠) ، " أن يجاهدوا بأموالهم " (٩ : ٤٤) . والذين لن يجاهدوا بأموالهم ستضيع أموالهم منهم إمّا بالخسائر الطبيعية أو بثورات المعدمين ضدهم " ربنا اطمس على أموالهم " (١٠ : ٨٨) . والمال للمشاركة ، وهو ملك للجميع ، لكل فرد حق فيه . " والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم " (٧٠ : ٢٤) ، " وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم " (٥١ : ١٩) وذاك أمر تشريعي وليس متروكا للصدقة أو للزكاة أو للاحسان " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها " (٩ : ١٠٣) . فمال الملاك الغائبين هو في نهاية الأمر مال الجماعة لا يجوز لأحد أن يستحوذ عليه أو أن يمتلكه .

ثانيا : تحليل المضمون

وينتهي تحليل المضمون ، تحليل معاني الآيات بصرف النظر عن صورتها إلى نفس النتيجة السابقة . يمكن حصر هذه المعاني في مجموعات ثلاث :

١ ـ المال مال الله يورثه لمن يشاء من عباده الصالحين . فملكية المال في الاسلام للّه وحده ، وضعه الله بين أيدينا وديعة نصرفه فيما أمر الله له أن يصرف ، للمحتاجين والفقراء أي لمن لا مال لهم ، " وآتوهم من مال الله الذي آتاكم " (٢٤ : ٣٣) ، المال وديعة بين يدي الانسان لا يجوز له الاستحواذ عليه " فإذا آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم " (٤ : ٦) ويتم نقل المال إلى المحتاج علنا ، فذاك حقه العلني " فإذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم " (٤ : ٦) فحركة المال ليس فيها سرٌّ ولا تتم عن طريق التسرب أو الخفاء أو ما يسمى بلغتنا عن طريق " التهايب " .

فالمال مال الله يوجه إلى الآخرين ، وليس ارثا أو احتكارا أو ملكا لأحد . حركة المال وانتشاره تخضع لقوانين اجتماعية وليست حقا مكتسبا لفرد دون فرد ، فإذا ما خضع المال لهذه القوانين أصبح في يد الجماعة التي تستثمره لصالح الجماعة " وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤدها " (٣٣ : ٢٧) وبتعبير آخر ، المال مشاركة بنص القرآن " وشاركهم في الأموال " (١٧ : ٦٤) وليس استحواذاً ، المال يتحرك بين الأفراد

كمتحرك المال بين الأواني المستطرقة طبقا للحاجة وليس من أجل الزيادة ، وطبقا للاستثمار وليس من أجل الاكتناز . فإذا ما حاول أحد أو جماعة وقف حركة المال تدخلت السلطة الشرعية وفكت حصار المال ، وأخذت حق الآخرين فيه " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها " (٩ : ١٠٣) ، والصدقة ليست احسانا أو تصدقاً أو تفضلا بل هي حق للآخر في مال الفرد ، واعادة بناء لشعور الفرد وعودته إلى وضعه الطبيعي ، وقضاء على اغترابه عن المجتمع وانحرافه عن القانون الطبيعي للمال وهو حركته الاجتماعية ، وهو ما يسمى بلغة الأخلاق أن الصدقة طهارة للنفس وتزكية لها والزكاة نفسها في العبادات هي تأكيد على حق الآخر في المال " وبتجنبها الاشقى ، الذي يؤتى ماله يتزكى " (١٢ : ١٨) وليس المقصود منها رشوة اجتماعية وسياسية حتى يترك الانسان بما له يفعل ما يشاء ما دام قد دفع ٢,٥٪ من ماله المخزون الذي مر عليه الحول دون حركة ، بل المقصود هو التأكيد على حق المجتمع في المال وعلى ضرورة استثماره وحركته دون خزنه واكتنازه . بل إن حق الآخر في مال الفرد نص صريح لا يحتمل تأويلا أو تمزيجا " والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم " (٧٠ : ٢٤) ومرة أخرى " وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم " (٥١ : ١٩) . ومشاركة الأموال بين الناس ، وحق الآخر في مال الفرد وهو الغاية من العبادات وعلى رأسها الصلاة احساس بالآخر غير المتعين وهو الله ، ومشاركة المال هو احساس بالآخر المتعين وهو الذي لا مال له " اصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفصل في أموالنا ما تشاء " (١١ : ٨٧) .

لذلك استحال أن يضيف الغني إلى أمواله مال الفقير ، أو أن يأخذ من له مال حق من لا مال له " ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان صوبا كبيرا " (٤ : ٢) حتى لا يتراكم رأس المال وحتى يظل المال سائلا بين أيدي الناس ، متحركا في الجماعة . فإضافة مال الآخر إلى مال الفرد إثم وعدوان ، وظلم وبهتان " لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون " (٢ : ١٨٩) . فالاثم والزور والبهتان والبطلان ليس في العبادات وحدها بل أيضا في خروج المال على نظام استعماله وعلى مساره الاجتماعي " ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل " (٢ : ١٨٨) ، أو " يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل " . (٤ : ٢٩) فالايمان مساو لاستعمال المال حسب الشرع ، وحركة المال بين

الناس دون استحواذ تعبير عن الايمان .

ولا فرق في الاستحواذ على أموال الناس وبين رجال الدين ورجال الدنيا ، بين السلطة الدينية والسلطة السياسية ، فكلاهما قد يوقفان حركة المال " إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل " (٩ : ٣٤) وهو ما يفسر تاريخيا باستمرار تواطؤ السلطتين الدينية والسياسية على أكل أموال الناس مما يسبب الثورة الاجتماعية التي تعيد الحركة إلى المال.

والآخر هو الفقير المحتاج الذي لا عائل له الممثل باليتيم . فاليتيم هو الذي فقد عائله ولم يعد له سند إلا من الجماعة . هذا اليتيم له حق في ماله ، إن كان له مال ، وهو حق الحاجة والفاذة ، ولا يمكن الاقتراب من ماله ، فالمال يستعمل عند الحاجة . الحاجة هي التي تحدد الملكية ، وليست الملكية هي التي تحدد الحاجة . لا توجد ملكية مجردة بل توجد حاجة ملموسة يجوز عندها استعمال المال وتصريفه . " ولا تقربوا مال اليتيم " (٩ : ١٥٢) ، (١٧ : ٣٤) . وأكل مال المحتاج الذي لا عائل له هو أكل للنار في البطون أي كسب حرام " إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا " (٤ : ١٠) ومن يفعل ذلك يستبدل الخبيث بالطيب ، والحرام بالحلال " وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدّلوا الخبيث بالطيب " (٤ : ٢) .

ويتم استثمار المال بالجهد والنشاط وبالعمل ، فالمال امكانية حركة ونشاط ، وسيلة للانسان كي يظهر بها قواه ، ويحقق بها امكانياته . ولكن المال لا يولد المال . ولهذا حرم الربا لأنه أكل لأموال الناس بالباطل ، وزيادة في المال بلا جهد أو عمل أو كد أو نصب . " وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل " (٤ : ١٦١) فزيادة المال كما لا تعني نماء الانسان كيفا ، وذلك لأن النشاط هو الذي يغير الكيف " وما أتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله " (٣٠ : ٣٩) فالربا استغلال لحاجات الآخرين ، وتكاثر في المال بلا زيادة مقابلة في الانتاج ، وتسرب للأموال من المحتاجين إلى الذين لديهم فائق في الأموال . والتربة من الربا تعني استرداد الفرد لرأسماله وارجاع ربح المال إلى المستدين " وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون " (٢ : ٢٧٩) استثمار المال إذن يتم بنشاط الانسان ، وبعرقه وكده " إن تبتغوا بأموالكم

محصنين غير مسامحين " (٤ : ٢٤) ، ويتـم الاستثمار بالترشيد والتنظير وحسن التصرف " ولا تؤتوا أموالكم التي جعل الله لكم قياما (٤ : ٥) فالمال من أجل القيام أي الانتاج والزيادة وليس من أجل الاستهلاك والنقصان . فإذا كان الربا أجراً بلا عمل فإن نشاط الانسان قد يكون عملا بلا أجر لأن نشاطه يهدف إلى تحقيق رسالة ولا يهدف إلى تحقيق ربح . فالربح ليس هو الدافع على النشاط بل الدفاع عن قضيته ، والانتصار لمبدأ " ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله " (١١ : ٢٩) . فإذا عمل الانسان من أجل قضية ، تحقيقا لهدف ، وتأدية لرسالة فإنه لن يعدم ما يقيم به حياته " وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم " (١٧ : ٣٦) .

٢ ـ تأكيدا على المشاركة في الأموال ، وتطبيقا لحركة المال في المجتمع ، كلما ذكر المال " ذكـر الانفاق له ، والجهاد به ، والبذل منه في سبيل الله أي في سبيل المصلحة العامة ، وخدمة للقضية التي بها عموم البلوى كما يقول الفقهاء . " مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء " (٢ : ٢٦١) . والانفاق لا يعني الصدقة بل يعني استثمار المال وذيوعه وحركته وعدم اكتنازه أو خزنه " ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة " (٢ : ٢٦٥) فالانفاق هنا أيضا لا يهدف إلى الربح بل يهدف إلى خدمة القضايا العامة . ويتم هذا الانفاق سرا وعلانية وليس علانية فقط بغية الشهرة أو الحصول على مصلحة أكبر " الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار ، سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم " (٢ : ٢٧٤) فما أكثر الانفاق الذي يتم رياء ونفاقاً أو من أجل إلحاق الأذى والاضرار بالآخرين واستذلالا لهم ، بالمن والكرم من اليد العليا " الذين ينفقون أمـوالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم " (٢ : ٢٦٢) . وفي الانفاق يتميز فرد عن فرد ، ويتفاضل مؤمن عن مؤمن ، فالتفاضل والتمايز ليس في قدر المال بل في قدر الانفاق أي المساهمة بالمال من أجل المصلحة العامة . وبهذا المعنى وحده يفضل الرجال والنساء بما انفقوا من أموالهم " بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم " (٤ : ٣٤) . أما الانفاق ضد المصلحة العامة وبعيداً عن سبيل الله فهـو الكفر بعينه " إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله "

(٨ : ٣٦) فالكفر ليس هو الكفر النظري بل هو كيفية انفاق المال في تخريب الذمم والضمائر ، رشوة للناس ، وفي غرس قيم الترف والنعيم التي هي أبعد ما تكون عن قيم النضال ، وتحقيق الرسالة .

وانفاق المال هو جهاد في سبيل الله مقرون بجهاد النفس . " انفروا خِفافاً وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم " (٩ : ٤١) . والجهاد بالمال وصف لواقع مثل " وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم " (٦١ : ١١) كما هو تقرير لسلوك ماض " إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم " (٨ : ٧٢) . كما هو أمر في الحاضر . فالجهاد بالمال لا يعرف وقتا ولا زمنا . والذي يريد التشبه بالرسول فليفعل بالجهاد وبالمال وليس فقط بإقامة الشعائر وإطالة اللحى " لكن الرسول والذين معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم " (٩ : ٨٨) . والجهاد بالمال يتم عن اقتناع وليس عن ريبة في نتيجة الجهاد ومآل المال ، فالعمل التاريخي عمل طويل ، والاستثمار التاريخي قد لا يبدو في التو واللحظة " ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله " (٤٩ : ١٥) كما أن الايمان بالقضية إيمان يقيني لاريبة فيه حتى يتم الجهاد بالمال عن يقين أيضا . ويكون الجهاد بالمال على قدر الطاقة ، وقليل المال يعظم بتكرار البذل والعطاء من الآخرين " لا يستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم " (٩ : ٤٤) . وكما يتفاضل الناس في الانفاق فإنهم يتفاضلون أيضاً بالجهاد بالمال " لا يستوي القاعدون هن المؤمنين غير أدلى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم " (٤ : ٩٥) فالتفاضل ليس في الطبقات الاجتماعية أوفي المناصب الادارية أو في الوجاهة الاجتماعية بل في الجهاد بمال الفرد في سبيل القضية العامة ، التحرر للبلد المحتل ، والتنمية للبلد المتخلف " فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة " (٤ : ٩٥) وقد يصل حد الجهاد بالمال إلى الجهاد بكل المال عن طريق تركه كلية والسعي في سبيل الله تحقيقا للرسالة ، ودفاعاً عن القضية ، فالانسان لا يرتبط إلا بالهدف " الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله " (٥٩ : ٨) . وهنا لا يكون فقد المال خسارة بل يكون وجوداً للذات ، وانتصاراً للمبدأ ، ودفاعا عن الحق واعلانا عن استقلال الانسان " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة " (٩ : ١١١) .

٣ ـ بعد التأكيد على شيوع المال ، وعلى ضرورة الانفاق له والجهاد به ، تأتي الحقيقة الثالثة وهي اعلان استقلال الشعور الانساني عن المال . فالذي يحب المال مدان لأنه يربط شعوره بشيء آخر غير القضية " وتحبون المال حبا جماً " (٨٩ : ٢٠) فإذا ما أحب الانسان المال أكثر من التزامه بالمبدأ ودفاعه عن القضية انهار البناء الاجتماعي وتوقفت حركة التاريخ " قل إن كان ... وأموال اقترفتموها ، وتجاره تخشون كسادها .... فتربصوا حتى يأتي الله بأمره " . (٩ : ٢٤) . فالشعور السّوي هو الذي ينفق المال ويجاهد به على حبه للمال " وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين " (٢ : ١٧٧) ، وهو الشعور الذي لم يغترب بالمال ولم يرضخ له .

والمال ليس قيمة في ذاته بل قيمته من الجهد المبذول في استثماره " الذي جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده " (١٠٤ : ٢ ـ ٣) أي في استقلال الشعور عن المال . كما أن المال ليس بديلا عن التصور الصادق للحياة ، فالمال لا يغني من الادراك والمعرفة وإلا لأصبح الانسان " غنى حرب " ! " أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينى مالا وولدا " (١٩ : ٧٧) . فالكم ليس بديلا عن الكيف ، والموضوع ليس بديلا عن الذات ، والمادة ليست بديـــلا عن الشعور . والمال لا يعصم من الانهيـــار ، فالبنـــاء لا يتم إلا بالكيف " ذرنى ومـــن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ... سأرهقه صعودا " (٧٤ : ١٢ ـ ١٧) . المال ليس بديلا عن بناء الشعور واتجاهه ، وجمع المال لا يعني بالضرورة زيادة الوعي أو قيمة العمل أو تطور المجتمع . ونقص المال ليس نقصا في القيمة نظرا لاستقلال الشعور عن المال " ونحن أحق منه بالملك . ولم يؤت سعة من المال " (٢٤٧:٢) فالمال في حركة دائبة ، يقل ويكثر ، لا يثبت على حال معين ، هو شيء عارض محض لا تتوقف عليه قيمة الانسان . قلة المال إذن قد تعني عظم قيمة الشعور ، واستقلال الانسان " إن ترني أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك " (١٨ : ٣١) . بل إن نقص الأموال قد يكون وسيلة لازدهار الشعور ، وطريقة لاعلان استقـلاله ، وشحـــذاً لهمته ، " ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال " (٢ : ١٥٥) فنقص المال دافع لحركة الجماعة وإشارة بالبنان إلى من لديهم المال الفائض لتبلون في أموالكم وأنفسكم " (٣ : ١٨٦) . فذلك جزء من التجربة الاجتماعية .

وبالتالي يستحيل الفقر الدائم كما يستحيل الغنى الدائم .

وكما أن نقص المال ليس بديلا عن استقلال الشعور ، فإن كثرة المال لا تعني بالضرورة استقلال الشعور وقيمة عمله ، ذالكم لا يغني عن الكيف " فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا " (١٨ : ٣٤) . المال مجرد زينة للحياة أي شيء عارض في مقابل الشعور وهو الشيء الثابت الجوهري " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " (١٨ : ٤٦) المال كالنسل وظاهر خارجي للحياة . " اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد " (٥٧ : ٢٠) وكما يكون نقص المال شحذاً للشعور تكون زيــادة المال ضياعاً للشعور ولتمثله للمبدأ والتزامه بالقضية " وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا (١٧ : ٦) وتكون كما بلا كيف " ويمددكم بأموال وبنين وجعل لكم جنات " (٧١ : ١٢) فكثرة المال قد تعني النهاية والفناء كما يحدث الآن في مجتمعات الوفرة والرفاهية " أيحسبون إنما نعدهم من مال وبنين ، نسارع لهم في الخيرات " (٢٣ : ٥٥) . وبتعبير قرآني ، قد تكون كثرة المال فتنة كما أن قلة المال ابتلاء " واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة " (٨ : ٢٨) . وقد تصبح كثرة المال نقمة لا نعمة إذا ما اعتبرها صاحبها بديلا عن العمل ، وقيمة في ذاتها . " ظل بعد ذلك زميم أن كان ذا مال وبنين " (٦٨ : ١٤) . وكلما زاد المال زادت الخسارة بزيادة الطغيان ، والعمى الذهني " ربي إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً " (٧١ : ٢١) . وقد كان فرعون كثير المال ولكن هذه الكثرة لم تغنه عن العقل والفضيلة " إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا " (١٠ : ٨٨) . فكثرة المال وكثرة النسل ما هي إلا ظاهر في الدنيا لا يجوز الحكم عليه طبقا للجوهر " فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم " (٩ : ٥٥) . كثرة المال قد تزيد من قسوة القلب وتبعد الانسان عن طريق الوعي والفضيلة " ربنا اطس على أموالهم وأشدد على قلوبهم " (١٠ : ٨٨) .

والمال ليس سبيلا للخلاص ، وليس بديلا عن العمل الصالح ، فالكم لا يغني عن الكيف ، والموضوع ليس بديلا للذات ، والمادة لا تغني عن المعنى ، والشيء ليس بديلا عن النشاط " يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم " (٢٦ : ٨٨) المال ليس

بديلا عن الوعي " أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا " (١٩ : ٧٧) والمال ليس بديلا عن الرؤية الصادقة والادراك السليم ، والحس البديهي " إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً " (٣ : ١٠ ، ١١٦) . واستهلاك المال لا يغني الانسان عن بذل طاقته في العمل الصالح " يقول أهلكت مالا لبدا " (٩٠ : ٦) . ولن يستطيع المال حفظ صاحبه من السقوط والتردي " وما يغني عنه ماله إذا تردى " (٩٢ : ١١) . والمال كالسلطان لا يغنيان عن العمل الصالح " ما أغنى عني ماليه ، هلك من سلطانية " (٦٩ : ٢٨ - ٢٩) والتاريخ شاهد على انهيار الشعوب التي اعتمدت على قوة المال وحده " كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا " (٩ : ٦٩) لن تغني كثرة المال أو النسل من الانهيار والسقوط ، فقوانين التاريخ وحركة المجتمعات ثابتة " وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين " (٣٤ : ٣٥) بل إنّ صاحب المال لا يستطيع أن يتقرب بماله أو أن يترقى بما يكتنز ، فالصعود الاجتماعي من حيث الغنى لا يقابله صعود معنوي من حيث القيمة " وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى " (٣٤ : ٣٧) لذلك يحذر القرآن دائما من رضوخ الشعور للمادة ، وينبه إلى خطورة نزوله عن استغلاله أمام المال " شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا " (٤٨ : ١١) أو قبول المال رشوة بديلا عن نقاء الضمير والالتزام بالمبدأ " أتمدوننا بمال " (٢٧ : ٣٦) . ويأتي هذا التحذير بصيغة الأمر " يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله " (٦٣ : ٩)

هذه المعاني الثلاثة هي التي يدور حولها مفهوم " المال " في القرآن المال حق الله ، وحق الآخر ، وحق استقلال الشعور الفردي عنه .

وفي النهاية ، يمكننا استنتاج الآتي :

١ - الطريق اللارأسمالي للتنمية في البلاد النامية هو الطريق الذي ينبع من تراثها القديم ، ومن وجدانها القومي ، ومن قيمها وعاداتها وتقاليدها ، وهو في الغالب التراث الديني ، ومن ثم وجب إعادة تفسيره على نحو يساعد قضية التنمية ، ويخدم مصالح الأغلبية .

٢ - المال مال الله وليس ملكا لأحد ، ولكن للانسان حق التصرف وحق الانتفاع وحق

الاستثمار ، فإذا ما استغل الانسان الآخر أو احتكر أو اكتنز فإن من حق السلطة الشرعية استرداد الوديعة . لذلك من حق السلطة الشرعية التأميم والمصادرة للصالح العام . فملكية المال أقرب إلى الجماعية منها إلى الفردية .

٣ ـ المال حركة اجتماعية بين أفراد الجماعة ، لا يجوز اكتنازه أو احتكاره أو الاحتفاظ به بل هو مال سائل للاستثمار لمصلحة الجماعة . ومن حق السلطة الشرعية التدخل لمنع تكديس المال أو اختزانه دون استثمار .

٤ ـ المال وسيلة لاظهار النشاط ولبذل الجهد ، وليس قيمته في ذاته ، بل القيمة في العمل ، فالمال لا يولد المال ولكن المال ينمو بالجهد . ومن حق السلطة القضاء على كل رؤوس الأموال الطفيلية الناشئة من التهريب والعمولات والسمسرة والمضاربة .

٥ ـ المال ليس للاستهلاك بل للانتاج ، فالاستهلاك قيمة ترفيهية في مجتمع الوفرة وليس قيمة انتاجية في مجتمع متقشف صاحب رسالة .

٦ ـ المال ليس دافعا على العمل في صورة ربح ، وليس قيمة في ذاته بديلا عن النشاط ، ولا يغني عن العمل الصالح والمجتمع المادي الذي يقوم على المال في ذاته كقيمة محكوم عليه بالانهيار .

٧ ـ المال للبذل والعطاء وللدفاع عن القضايا العامة ، فالحركة من الشعور إلى المال بالعطاء وليس من المال إلى الشعور بالاكتناز والكسب ، بل إن العمل لخدمة القضية العامة عمل بلا أجر ، فالعمل الوطني ليس من أجل التكسب .

تلك خطوط عامة لتصور " المال " في القرآن وهو أبعد ما يكون عن التصور الرأسمالي الذي يقوم على الملكية الفردية ، والنشاط الاقتصادي الحر ، والربح ، والكسب غير المشروع ، ومجتمع الاستهلاك ، وحياة الرفاهية . في تراث البلاد النامية إذن ما يساعدها على شق طريق لا رأسمالي للتنمية .

صادرات دار علاء الدين

١ ـ الحمضيات

.... م. طه الشيخ حسن

٢ ـ أعشاب الشفاء

.... د. ماجد علاء الدين ـ ١٩٩٣

٣ ـ أسرار الكون

.... عدة علماء ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٤ ـ أطلس العمليات الجراحية

.... فائز طريفي ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٥ ـ حدائق النوافذ

.... جون براغن

٦ ـ طبيب نباتات الزينة

.... حازل ايفاس والكان عوم

٧ ـ تقليم وتربية أشجار الفاكهة

.... طه الشيخ حسن ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٨ ـ هرمونات النمو الزراعية

.... نزار كاخي ـ دمشق ـ ١٩٩

٩ ـ دليل الحامل

.... دار علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٣

١٠ ـ دليل مريض السكر

.... دار علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٠

١١ ـ البيوت الزراعية

.... لان ولز

١٢ ـ جراحة القلب

... د. كمال عامر ـ د . اسماعيل الخطيب

١٣ ـ الطريق إلى الصحة

.... زويا ميخائيلنكو ـ دمشق ـ ١٩٩٠

١٤ ـ الطب الشعبي ومجالاته

...... جارويس فيرمونت ـ دمشق ـ ١٩٩٢

١٥ ـ علاج الأمراض الجلدية بالأعشاب

.... داتسكوفسكي ـ دمشق ـ ١٩٩٢

١٦ ـ فوائد عصير الخضار والفواكه

.... نورمان وكمر ـ دمشق ـ ١٩٩٢

١٧ ـ الأجسام الطبيعية

.... كيتا بجوردوسكي

١٨ ـ القوة العصبية

.... بول بريغ ـ دمشق ـ ١٩٩٢

١٩ ـ كيف تقوي بصرك

..........إيلا فلاديمير ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٢٠ ـ كيف تكونين جميلة

.... زويا ميخائيلنكو ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٢١ ـ العناية الخاصة بالمرضى

.... م . ميليتش

٢٢ ـ المساج النقطي

........زويا ميخائيلكنو ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٢٣ ـ مشاريع الإنتاج الحيواني

........د. سلامة شقير ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٢٤ ـ موسوعة الطيور

.... مجموعة باحثين ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٢٥ ـ المأكولات الشهية للشعوب الشرقية

.... ميلنسيك ـ ١٩٩٣

٢٦ ـ تطعيم أشجار الفاكهة وإكثارها

...... طه الشيخ حسن ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٢٧ ـ الحدث التوارتي

.... فراس السواح ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٢٨ ـ ذكراه في القلب

........آنا غاغارين ـ ترجمة

........محمد بدرخان ـ دمشق ـ ١٩٩٠

٢٩ ـ دين الإنسان

.... فراس السواح ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٣٠ ـ رموز مقدسة

.........نيقولاي ريريخ ـ ترجمة

.......د. ماجد علاء الدين دمشق ـ ١٩٩٣

٣١ ـ آرام دمشق واسرائيل

.... فراس السواح ـ دمشق ١٩٩٥

٣٢ ـ لغز عشتار

.... فراس السواح ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٣٣ ـ مغامرة العقل الأولى

.... فراس السواح ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٣٤ ـ ملحمة الزمن

.... اناتولي سافروفوف ـ ترجمة د.

........ماجد علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٣٥ ـ برتراند رسل

.... سمير عبده ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٣٦ ـ بدايات الحضارة

...... عبد الحكيم الذنون ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٣٧ ـ البلدان النامية والعلاقات الإقتصادية

...........ا. س. بورتيانكوف ـ ترجمة

......د. ماجد علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٨٤

٣٨ ـ تاريخ القانون في العراق

...... عبد الحكيم الذنون ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٣٩ ـ التحليل النفسي للأقوال المأثورة

.... سمير عبده

.........ـ.................ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٤٠ ـ تحضير الكيك والكاتو

مرغريت باتن ـ ترجمة فاتن عمران ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٤١ ـ جلجامش

.... فراس السواح ـ دمشق ـ ١٩٩١

٤٢ ـ الجنس في العالم القديم

بول فرشياور ترجمة فائق دحدوح ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٤٣ ـ الصحافة السورية بين النظرية والتطبيق

..... د. عدنان ابو فخر ـ دمشق ـ ١٩٨٤

٤٤ ـ صفحات من تاريخ فن الرقص في العالم

.... فائق شعبان ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٤٥ ـ طقوس الجنس المقدس

...... ترجمة نهاد خياطة ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٤٦ ـ العرافة وسوسة أم ..؟

ترجمة د. ماجد علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٤٧ ـ مدخل إلى علم تصنيف المكتبات

.... برجس عزام ـ دمشق ـ ١٩٨٦

٤٨ ـ المأكولات الشهية للشعوب الشرقية

..... ف. م. ميلينيك ـ ترجمة سميح شيا

.... دمشق ـ ١٩٩٢

٤٩ ـ نحن والأبراج

... ترجمة دار علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٥٠ ـ نظرية الدولة في الفكر العربي

.... محمد علي جمعة ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٥١ ـ شريعة حمورابي

مجموعة من المؤلفين ـ ترجمة اسامة سراس

...............ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٥٢ ـ الديانة الفرعونية

واليس بدج ـ ترجمة نهاد خياطة ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٥٣ ـ أزمة العالم

فيدل كاسترو ـ ترجمة نصر الشمالي ـ دمشق

ـ................................. ١٩٨٩

٥٤ ـ الأخوة كينيدي

.... غروميكو ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٥٥ ـ البيت الأبيض وأسرار المخابرات الأمريكية .

..... ك. ف. بتروسينكو ـ دمشق ـ ١٩٩١

٥٦ ـ مذكرات عن الإنقلاب العسكري

... ميخائيل غورباتشوف ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٥٧ ـ الاساطير والحقائق عن عائلة ستالين

...... ترجمة سميح شيا ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٥٨ ـ ملحمة الرجال

..... احمد فرحات الناصر ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٥٩ ـ أسرار المدافن المصرية

.... اجاثا كريستي ـ ترجمة

.............مازن نفاع ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٦٠ ـ الشركس في فجر التاريخ

.... برزج سمكوغ ـ دمشق ١٩٩٥

٦١ ـ سيد درويش

.... احمد بوبس ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٦٢ ـ الزيتون

..... م . طه الشيخ حسن ـ دمشق ١٩٩٥

٦٣ ـ الوقواق والديك

.............ترجمة د. ماجد علاء الدين

.......................ـ دمشق ـ ١٩٨٥

٦٤ ـ الوقت الضائع

ترجمة رسلان علاء الدين ـ دمسق ـ ١٩٩٢

٦٥ ـ قصص قصيرة

ترجمة رسلان علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٦٦ ـ حكاية العملاق العجيب ـ جونغ

... ترجمة ريما علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٦٧ ـ قفزة

. ترجمة رسلان علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٦٨ ـ الذئب والثعلب

.... ترجمة د. ماجد علاء الدين ـ

.....................دمشق ـ ١٩٨٥

٦٩ ـ المرآة والقرد

ترجمة د. ماجد علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٨٥

٧٠ ـ اللؤلؤة النادرة

..... ترجمة اكرم ابو راس ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٧١ ـ حلوى الأطفال

..... ترجمة فاتن عمران ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٧٢ - تيمور وفريقه

ترجمة د. ماجد علاء الدين - دمشق - ١٩٨٤

٧٣ - مغامرات بوراتينو

. ترجمة د. ماجد علاء الدين - دمشق - ١٩١٩٨٥

٧٤ - صفحات مجهولة من حياة تولستوي

.... ترجمة د. ماجد علاء الدين -

.........محمد بدرخان - دمشق - ١٩٨٦

٧٥ - من روائع الشعر الفرنسي

..... ترجمة سعد صائب - دمشق ١٩٩٥ .

٧٦ - لوركا

..... ترجمة سعد صائب - دمشق ١٩٩٥

٧٧ - عندما تغيب الأم

.... رجاء ارناؤوط - دمشق ١٩٩٥

٧٨ - المناضل الشجاع

...... رجء ارناؤوط - دمشق ١٩٩٥

٧٩ - الزهرات الشقيقات

.... باسمة الرهونجي - دمشق ١٩٩٥

٨٠ - سلسلة دانا

..... ناهدة الرهونجي - دمشق ١٩٩٥

٨١ - تعلّم الطفل في الأسرة والمدرسة

...... اسماعيل اللحم - دمشق ١٩٩٥

كتب توزعها الدار

* المجاهد سعيد العاص

.... احمد يوسف داود - دمشق -١٩٩٠

* الميراث العظيم

...... احمد يوسف داود - دمشق - ١٩٩٠

* النظام المرابي العالمي

.... مجموعة من الباحثين - دمشق - ١٩٧٢

* الصليبيون في الشرق

...... ميخائيل زابوروف - دمشق - ١٩٨٧

* إرهابيو الموساد

..... فلاديمير ميخائيلوف - دمشق - ١٩٨٩

* الأثنوس والتاريخ

... ترجمة اسعد الفارس - دمشق - ١٩٨٨

* المصير العربي

.... خليل الجهمان -دمشق - ١٩٩٣

* موضوعات للذاكرة العربية

.... نصر الشمالي - دمشق - ١٩٩٤

* الإنفجار

.... رافي باترا - دمشق - ١٩٩٠

* الاتحاد السوفييتي

..... فلاديمير بوكوفسكي - دمشق - ١٩٩٣

* حكي بردانين

.... جمال عبود - دمشق - ١٩٩٤

هذا الكتاب

يبحث مؤلف هذا الكتاب في ماهية الموقف الديني ، إذ يتناول الصراع الحقيقي الدائر منذ القدم ، وحتى وقتنا هذا في مختلف الأديان والطوائف . وينطلق المؤلف في تحليله من وجهة نظر معرفية شاملة لتطور المجتمعات والعلوم الإنسانية عبر العصور ، آخذاً على عاتقه : « بيان اليمين واليسار في الفكر الديني في تراثنا القديم ، وفي وجداننا المعاصر ، كما ورثناه في علم أصول الدين ... »

ويتوقف المؤلف في هذه الدراسة على تحليل التجارب الحية ، ووصف الخبرات المشتركة ، دون الخوض في معركة البناء الفوقي والبناء التحتي ، كما يتناول هذا الموضوع أغلبية الأكاديميين .

وتجدر الاشارة إلى أن الباحث يعكس هذا الموضوع عن طريق وصف الظواهر الفكرية كما هي ، ويبين العلاقة الجدلية بين الأفكار والواقع ، إذ يرى أن اليمين واليسار موقفان فكريان متمايزان من الأساس .

تعتبر هذه الدراسة الأولى من نوعها من حيث المنهج ، وكثافة الأفكار المطروحة للنقاش .

الناشر

8

يطلب هذا الكتاب على العنوان التالي :

دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة
دمشق ص.ب ٣٠٥٩٨
هاتف : ٢٣١٧١٥٨ ـ ٥٦١٧٠٧١
تلكس : ٤١٢٥٤٥ ـ فاكس : ٢٣١٧١٥٩

